كتاب اليوم
حكاية
أولاد حارتنا
د. عبد الجليل شلبى
د. سمير سرحان
محمود أمين العالم

كتاب
اليوم
يصدر عن دار
أخبار اليوم
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده
رئيس التحرير :
نبيل أباظة

□ يناير ١٩٩٥

أسعار كتاب
اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	١	دينار
المغرب	٢٥	درهم
لبنان	٢٥٠٠	ليرة
الأردن	١٥٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	٢٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٦٠	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١	دينار
سلطنة عمان	١	ريال
غزة	١٥٠	سنت
ج. اليمنية	٣٥	ريال
الصومال نيجريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريال
انجلترا	١,٧٥	جك
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٢٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا	٥٠٠	سنت
أمريكا	٥	دولار
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها مصريا

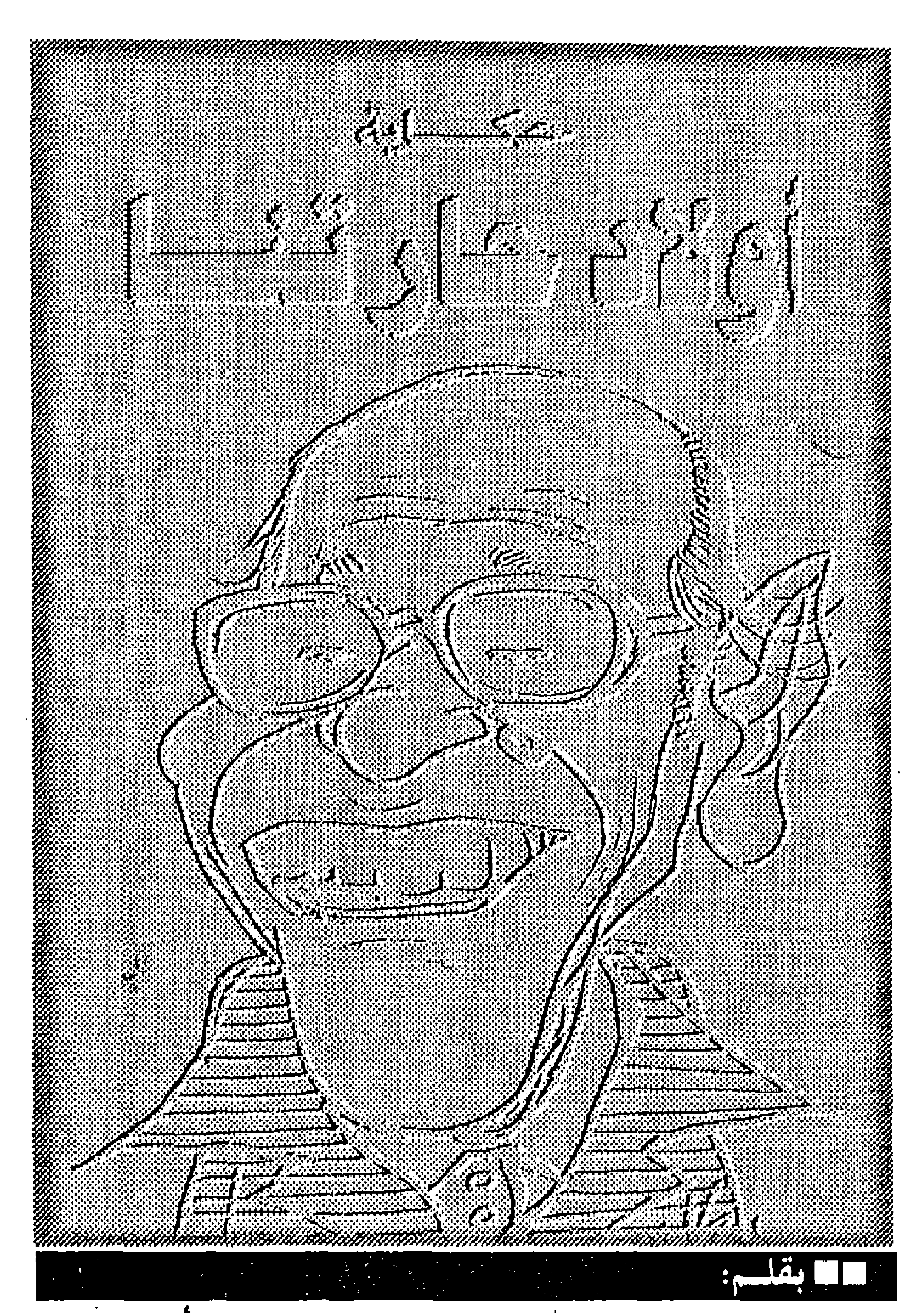
البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٠ دولارا
أمريكايا أو ما يعادله
أوربا وأمريكا ٣٠ دولارا
أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا
٤٠ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور ●

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ●

٣ (أ) ش الصحافة
القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)
● تلكس : ٢٢٨٢ _ ٢٠٣٢١ دولى ●



بقلم:

■ د.عبد الجليل شلبى ■ د.سمير سرحان ■ محمود أمين العالم

● تصميم الغلاف والإخراج الفنى
أحمد السعيد

● الغلاف بريشة :
سيد عبدالفتاح


١
رمزيات
أولاد
حارتنا
بقلم:
د.عبد الجليل شلبي

تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله الكـريم وأصلى وأسلم على نبيـه العظيـم خـاتم الأنبيـاء والمرسلين ، اللهم بصرنى بـالحق وأعنى على اتباعه . وجنبنـى الباطل وحل بينى وبينه ، وأعوذ بك يـاربى أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أن أكـون بـك مغـرورا ، اللهم أرزقنى نـور العقل واعصمنى من نزغات الهوى .

وبعـد فهذه خـواطـرى عن رواية «أولاد حـارتنـا» التى أخرجهـا الكـاتب الكبير الأستاذ نجيب محفـوظ من نحـو ثـلاثين عامـا ، كنت أقرؤها فى جريـدة الأهرام ، أو على الأدق كنت أقرأ الكثير من فصولها ، وطفرت فى ذهنى اذ ذاك خواطر كثيرة عنها وعما يريد منها كاتبها .

بـدا لى أنها تصف ظلم الإنسان لـلإنســان ، وبغى الأقويـاء ، على المستضـعفين ، وهذه نـزعة لازمت الإنســان منذ هبط آدم إلى الأرض ، كان يريد أولاده ، أن يعيشوا فى ســلام ومحبة ، ولكن عكر هذا السـلام ونغص هذه المحبـة إبنه قـابيل بقتله أخاه ، وكـانت هذه أول جـريمة وقعت فى الأرض ، ثم تتابعت الجرائم ، وكـان المصلحون يظهرون بين

حين وحين يحاولون نشر العدالة وإنصــاف المظلومين ، وبث التعاليم والـوصايـا التى تبعث الطمأنينة فى القلـوب ، ولكن ينتصر الظلم حتى على الأنبياء ،فيذهبون وتذهب أيضــا تعاليمهم ووصاياهم ، ولما ظهر العلم الحديث لم ينتصر على الظالمين ، بل اتخذ الظــالمون منه ســلاحا لهم حتى على العلماء . الظلم إذن طـــوفــان غــامــــر يجرى فى عــروق الآدميين ، وليس دعاة الإصــلاح إلا مرقداً مــوقوتا يفرح النــاس به إلى حين .

هذه الفكـرة بادية جـدا فى الرواية ، وقـد دس المؤلف بين فصولها مـواقف كثيرة تزيـدهــا وضــوحا ، ففى كل فصـــل نجد «فتـوة» كبيرا يعتــدى على الناس ، ونــاظـر الـوقف والفتوات فضـــلا عن اغتيـالهم نصيب الناس فى الوقف يفرضـون عليهـم إتاوات ، والناس مع هذا كله يتذرعون بالصبر ويتطلعـون إلى يوم ينصفون فيه . والمؤلف لم يعف الجبلاوى من هـذا الظلم ، فقد طرد كـلا من إدريس وأدهم من البيت لأسباب واهية ، ولم يوضح الكاتب كما وضحت الكتب المقدسة تعليل هذا الطرد .

والجبــلاوى قابع فى بيتـه لايـراه أحـد ، ولكنه غير راض عن هــذا الظلم ، وهـو يشجع المصلحين ويخاطبهم دون أن يـروه ، ويـوجههم لهداية النــاس وكف الظالمين عن ظلمهم ، وخاطر آخـر انقدح فى ذهني بعد أن قـابلت الأستاذ نجيب وحـدثنى عن روايته «ثـرثرة على النيل» فقد قال إنه أراد بها تصويـر العزلة التى فرضت على المثقفين فى العهد الناصرى ، فلم يبق لهم عمل وهم معزولون عن حياة الناس إلا ضياع الوقت فى العـربدة والشراب ، خيل إلىّ ـ ولم أفاتحه فى ذلك ـــ أنه يشير إلى مــا كان يعــانيــه النــاس فى ذلك الوقت من كبـت وإرهاق وانتــزاع أملاكهم منهم فى موجة التــأميم التى أوذى الناس منها ولم يستطيعوا أن يجأروا بالشكوى . فــالرواية تقول لهم لقـد أوذى الأنبياء من قبل

ولاقوا فى سبيل دعواتهم مالاقــوا ، فليكن لهم بأتباعهم أسوة ، وعسى أن ينتهى الليل ويأتى نور النهار .

وكان الخاطر الذى يضايقنى هــو إغراق الرواية فى الشرب والسكر والمخدرات ، حتى الأنبيـاء المصلحون الذين اختـارهم لم يبتعدوا عن الغــرز ولم يتنـزهــوا عن الشراب والتحشيش . ولكن هــذه خصيصى نجيب ، فمعظم رواياتــه تحوى هذه المظاهر . ويبـدو أنه لانغماسه فى الحياة الشعبيـة لاحظ هـذه الظاهرة وهــى لاتزال شـائعة فى حيـاتنا المصرية رغم التشديد ورغم قسوة العقوبـات ، وقد تركت الرواية باب الأمل فى الانصاف والانتقام من الظالمين مفتـوحا بعثور «حسن» تابع عرفة على الكراســة التى تحوى أسرار السحر ، كما تركت نفوس أولاد الحارة متشــوقة إلى ظهــور مخلص عـاقـدة آمالها على نــور سينبثق ليضىء ، حياة الشعب المظلمة .

وكما سـأذكر فى التعقيب على الـرواية ، كان كل مــا أعنيه بالكتـابة عنها هــو حل رموزها ، والمطـابقة بينها وبين أصــولها فى كتب الأديان والتــاريخ . والأستــاذ نجيب من قبـل أن يحصل على جـائزة نـــوبل معــروف فى العالم العــربى وغير العــربى ، ونسـأل الله لــه مزيـدا من النشـاط وطول العمر

د . عبد الجليل شلبى

رمزيـــات
أولاد حارتنا

هذه قصة تـرمز إلى حياة الأجيال وتطوراتها منـذ بدء الخليقة ، أو قـد رأى كاتبهـا أن يقتبس أحداثهـا من مقدســات العهد القـديم ومن الأناجيل ومن القرآن ، ولكن أدخـل على هذه الأحداث مايكسوهـا ثوبا شـعبيا ، وقد قال فى مقدمتها إنــه سجلها جميعا كما يرويها الرواة وما اكثرهم وكما نقلتهـا الأجيال ، وهذه حكـايات تروى فى ألف منـاسبة ومناسبـة .. وهو قـد مزج الخيـال والأقوال الشـعبيـة بما اقتبسه من المقدسات .

وفى ادب الأستاذ محفوظ خاصيتان بارزتان فى كل أوجل رواياته ، أولاهما تذوقــه الحياة الشـعبيـة وإحساســه بمشاعـر الطبقة الـدنيا والمتوسطـة وتجد ذلك فى قصصــه الطويلــه وأقصوصــاته القصـيرة ، ففى «خان الخليلى» والثلاثية نجد تصـويرا واقعيا للطبقة المتوسطة ، وفى مثل «التـوتة»«وحضرة المحترم» و «المقـابلـة السـاميـة» تصويـر للطبقة الشـعبية والجهـاد اليائس للتخلص ممايعانيـه المقلون ، ونقرأ

هذه القصص على طولها وعلى قصرها فنتخيل «نجيب محفوظ» يعيش مع هـؤلاء النـاس ، يحس مشـاعـرهم وينفـذ إلى أعماق نفـوسـهم ، ويتحدث بلسانهم .

والخاصية الثانية هي إجادته الرمزية ، وحسن الاشارة إلى مايريد من غير تصـريح بشيءليعـسر ـ مع فهم مايـريد ـ أن يقـع تحـت مسئـوليـة قانـونيـة ، وهى سمـة الاديب الناضج ، والأمـر كما قـال «كارلايل» : «الأديب الـذى يعاقب على أدبـه يستحق العقوبـة» وقصة «ثـرثرة على النيل» تعنى عـزلـة المثقفين التى فرضت عليهم فى العهـد النـاصرى فجعلهم فى عـوامـة فى النهـر فـارغين لاعمل لهم الا الشرب والسكـر ، ولا يـربطهم بـالعـالم إلا هـذا الممـر الخشبى الضئيل «السقالة» وأذكر وأنا فى انجلترا أننى قرأت بالمصادفة له قصة قصيرة عنـوانها «فنجان قهـوة» وأعجبت بها أيما إعجـاب ، فقد صـورت على قصرهـا مشاعـر النـاس المرتبطـة بنظم الحكم فى بلادهـم فى رمزيـة شائقة جميلة .

وخاصية ثـالثة أذكرها لهذا الكـاتب الكبير وهى أناته وصبره حين يصـور الوقـائع التى يريـدها أو يصف نفسيـات الاشخـاص الـذين يتحـدث عنهم ، فهو لايعنيـه الأكثار من تتـابع الأحداث ونقل قـارئه بسرعـه من حـادثـة لأخـرى ، ولكن يعنيـه تحليل الحادث ورده إلى أسبابه البعيدة والإيماء إلى ماينتج عنه .

هذه الخواص الـذاتية تبرز بـوضوح فى قصـة أولاد حارتنـا فهي أساس قصـة رمزية ، وقـد أشبعها ـ حتى جعلهـا تغص ـ بالمظـاهر الشعبية ، وسنـذكر ذلك فى مـوضعه بعد ، ثم هـو بسبب أناتـه طويل النفس فى تصويـر كل حادث يتعـرض له . وهـذا ـ دون ريب ـ مما أكسب الرواية هذا الطول .

هيكل الرواية :

الرواية كما ذكرنا تعرض حياة الكون منذ بدء الخليقة ، ومنذ أمر الله ـ سبحانه الملائكه أن تسجد لأدم واستكبار إبليس عن السجود له وطرد إبليس من الجنة ، ثم اغواء الشيطان آدم أن يأكل من الشجرة المحرمة مما سبب طرد آدم وحواء من الجنة أيضا ، وقد تكاثر نسل آدم ، وبعث الله لهم الرسل مبشرين ومنذرين فكان لكل نبى مع قومه قصة وجهاد .

وقد اختصر الكاتب الكون فى حارة ، وصور الجنة ببيت كبير ذى أسوار عالية وبه حديقة ذات أشجار وثمار ، وبدلا من أن يذكر الله الخالق جعل صاحب البيت والحديقة هو الجبلاوى ، وجعله ذا بنية قوية وجبروت وجعل له أملاكا وأحكارا ، وهو يحصل إيجارها ، كما يحصل ثمارا أو أشياء أخرى تجعله ذا دخل وثراء ، مما جعل الحارة تخضع كلها له وتخشاه .

وانتقل الكاتب بسرعة إلى رسالة موسى ـ عليه السلام ـ والأحداث التى صادفها فى مصر ، وخروجه ببنى اسرائيل من مصر وغرق فرعون ، ثم ذكر حياة المسيح ونهايته مقتولا بالنبابيت . ثم عرض حياة النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هجرته وحروبه وانتصاراته . وختم الحديث بموت الجبلاوى ـ وهذا رمز لنكران وجود الله بظهور المذهب العلمانى وتفشى الشيوعية الكافرة بالله .

هذا هو هيكل الرواية ، ونحن نمر بفصولها لا للشرح والتفصيل ، ولكن لبيان الرمزيات التى تحتويها . وظاهر من استعراض الرواية أن المؤلف لم يقف عند الروايات الشعبية بل رجع إلى الكتب المقدسة لأنه ذكر تفاصيل ودقائق لايعرفها الشعبيون السذج ، وسنشير إليها عند عرضها .

ويلاحظ أن المؤلف اختار لأبطاله أسماء متقاربة ، فآدم هو أدهم ، وإدريس هو إبليس . وأبناء آدم قابيل وهابيل هما همام وقدرى .

ونحن نستعرض هـذه الفصول أو هذه الشخصيات مـدركون أن استعراضـها السريع يذهب بما فيها من عمق التحليل وعرض السمات الشعبيـة التى تقـوم الـرواية عليهـا ، ولايغنى ذلك عن الـرجـوع إلى الرواية لمن لهم صبر على القراءة .

والـرواية قـائمـة على الحوار ، والاستـاذ نجيب بارع فى حـواره ، وتبـدو فيه السمات الفلسفيـة ، والاستـاذ نجيب ــ كما هو معـروف للجميع ـ تخرج فى قسم الفلسفـة من كلية الآداب بجـامعة القـاهرة ، فدراسـته الفلسفية تظهر فى إدارة الحوار وتوجيه الأسئلة والأجوبة .

وأسلوب الرواية كما تستدعى أحداثها ومظاهرها الشعبية أسلوب سهل تظهر فيه عبارات عامية كثيرة ، ولكنها لابد منها لإحكام الموقف ولدقة تصويره ، وننظر بسرعة فى فصول الرواية .

أدهــــم

أدهم هو آدم

جاء فى أول الفصل : « كان مكان حـارتنا خلاء ... ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى .

وهـذا الكلام قـائم على مـا جاء فى الكتب المقـدسـة ، ففى الحديث الشريف : كان الله ولم يكن غيره » وفى أول سفـر التكوين : «.. وكانت الأرض خربة وخـالية ، وعلى وجه الأرض ظلمة ، وروح اللـه يرف على وجه الماء ... »

وقصة آدم فى الجنة مـذكورة فى غير سورة من سـور القرآن ، فقد علمه الله الأسماء كلهـا ، وقال للملائكة : اسجـدوا لآدم ، وهو سجود تعظيم لا سجود عبادة ، فسجـد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع السـاجدين ، وكان إبليس رئيس الملائكـة فى الجنة ، فلما أبى أن يسجد لآدم طرده الله منها .

وجاء فى سفـر التكوين : « وأنبت الرب الالـه من الأرض كل شجرة شهيـة للنظر جيـدة للأكل ، وشجـرة الحيـاة فى وسط الجنة شجـرة معرفة الخير والشر ... »

وأخذ الرب الاله آدم ووضعه فى جنة عدن . قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها .. »

وصور المؤلف هذا الموقف حسبما هداه خياله : « ويوما دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه ، وجاء الأبناء جميعا ... فوقفوا بين يديه ، وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة ... وهو يبدو بطوله وعرضه خلقا فوق الآدميين ، كأنما من كوكب هبط ... وقال بصوت خشن وعميق : « أرى من المستحسن أن يقوم غيرى بإدارة الوقف » ـ لم تكن إدارة الوقف مما يغرى قوما استحبوا الفراغ والدعة وعربدة الشباب ، وفضلا عن هذا فإدريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعى للمنصب » وقال الجبلاوى : « وقد وقع اختيارى على أخيكم أدهم ليدير الوقف ... » ـ عكست الوجوه وقع مفاجأة ... فتبودلت النظرات فى سرعة وانفعال » .

هذا الموقف ناظر إلى قول الله : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ..» وسكت الأبناء ودار حوار بين ادريس والجبلاوى لأن ادريس لم يقبل هذا القرار وهو الابن الأكبر ، وجاء فى حوار ادريس : «انى وأشقائى أبناء هانم من خيرة النساء ، أما هذا فابن جارية سوداء» .

وقال الجبلاوى : أدهم على دراية بطباع المستأجرين ، ويعرف أكثرهم بأسمائهم .

وهذا الحوار ناظر إلى تعليم آدم الأسماء ، وإلى قول إبليس : «خلقتنى من نار وخلقته من طين » لهذا قال ادريس : أمه سوداء وأمى بيضاء .

ولست أدرى كيف طاب للمؤلف أن يصف الجبلاوى بالظلم والعسف المتوالى . فقد جاء فى وصفه : اكفهر الوجه الكبير ... وأيقن الجميع أن ادريس قد انتهى ، ما هو إلا مأساة جديدة من المآسى التى

يشهدها هذا البيت صامتا ، كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة ، وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحا يحمل على ظهره العارى آثار سياط حملت على أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه ... ثم نجده يتفجر عن ثورة جديدة ضحيتها إحدى الخادمات .

وفى مقابل هذا نجد ثناء على ادريس .. حتى ادريس — على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى اللهو - لم يسىء قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوته .

على أى حال هم المؤلف أن يضفى على روايته ثوبا شعبيا .

وفى خلق حواء من ضلع آدم ، قال الكاتب : وقف آدم ينظر إلى ظله الملقى على الممشى ... فإذا بظل جديد يمتد من ظله ... بدا الظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه ، والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء .

وجاء فى سفر التكوين : « فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام ، فأخذ واحدة من ضلوعه وملأ مكانها لحما ، وبنى الرب الاله الضلع الذى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ... »

أما فى القرآن الكريم فجاء : «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ....» وجاء : « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » .

وصور الكاتب حزن الاخوة على طرد ابليس من القصر وحزن أدهم معهم تصويرا رائعا لعله أراد به أن يمهد لطاعة أدهم لإدريس حين أغراه بفعل ما نهى أبوه عنه ، حتى إننا نجد أدهم - يذهب إلى أبيه شفيعا لادريس أن يعود ، ولعل ذلك من خديعة ادريس .

وبدلا من النهى عن الأكل من شجرة الحياة .. شجرة معرفة الخير من الشر ، جعل الكاتب للجبلاوى وصية ذات شروط عشرة ، وقد خبأها فى الحجرة الخاصة به ، ولكن ادريس وسوس لأدهم وزين له

أن يدخل الحجرة خلسة ويطلع على الوصية ، وأغرت أميمة - زوج أدهم - زوجها بذلك وما زالا به حتى خُدع فأطاع ، ولكنه ما كاد يفتح العلبة أو الصندوق الذى به الوصية حتى كان أبوه واقفا وراءه .

والذى يلاحظ هنا أن الكاتب انقاد لما جاء فى سفر التكوين من أن حواء أغرت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة فأكلا منها فبدا لهما جسمهما عاريا ، وفى القرآن الكريم « فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ... » ولم يلق المسئولية على حواء ، ولكنهما أيضا ومعهما الشيطان خرجوا من الجنة جميعا بعضهم لبعض عدو ، وكذلك فعل المؤلف فجعل آدم وزوجه يخرجان من البيت الكبير ، وقد شملهما الندم ، وادريس شامت فيهما ساخر منهما .

وأخذ الكاتب أيضا من سفر التكوين أن الرب الاله كان يمشى صباحا بين أشجار الجنة ، وعن الأمرين جميعا - اغراء حواء آدم بالأكل من الشجرة ، وتمشى الرب الاله بين أشجار الجنة - جاء فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين : ... «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ... فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها منها أيضا فأكل .... وسمعا صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله ، اختبأ لأن سوءاتهما قد ظهرت وأصبحا لا يصلحان للاقامة فى الجنة » .

نزل آدم وحواء ونزل ابليس من قبل ، وكان لابليس أو ادريس - كما تخيل الكاتب - ذرية ، وهذا ما جاء فى الكتب المقدسة أيضا .

وجاء فى الاصحاح الرابع من سفر التكو ين : وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قابيل ... ثم عادت فولدت اخاه هابيل ، وكان هابيل راعيا للغنم ، وكان قابيل عاملا فى الأرض .... » .. وقربا قربانين فقبل الله قربان هابيل .

وجاءت القصة فى القرآن أيضا : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق

إذ قرّبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك» الخ« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله» .

وتصرف المؤلف فى هذا الموقف بعض التصرف ، فجعل قدرى يقتل هماما ويدفنه فى التراب ، وكان الجبلاوى قد رضى عن همام وأرسل إليه ليحضر إلى بيته ، وذهب همام ودخل البيت الكبير فأنعشه وأعجبه جو الحديقة وقابل الجبلاوى ، وقد رجاه أن يعفو عن أبيه وأمه ، ولكن الجبلاوى سمح له بالذهاب إليهما للاستئذان فى الاقامة مع جده وقال له جده : إنه يحبه لأدبه وأنه سيتزوج فى هذا البيت ، وعاد همام ليستأذن ولكنه لم يرجع إلى البيت ، وقد قتله أخوه قدرى فى الصحراء إذ رماه بحجر فقتله .

والكاتب يصور هذا الموقف فى حوارات طويلة بين أدهم وأولاده وزوجه ، ولم يكن ادريس غائبا عن الموقف كله ، ولكنه ظهر فى غير مرة ، وظهرت معه ابنته هند ولكنها فجأة اختفت ولا يعلم أحد أين ذهبت .

الموقف كله يبرز فى صورة شعبية كلا من ادريس وقدرى فى صورة أشخاص شريرين ، غير أن ادريس خبيث ماكر يدبر الشر ويمد له أسبابه ، وقدرى مميز بقوته ، وكل منهما ساخط على الجبلاوى ، وقد دبت الغيرة فى نفس قدرى لاختيار الجبلاوى لهمام دون قدرى ، وتردد همام فى الذهاب وحده إلى البيت الكبير دون ذويه أو بقائه معهم على ما هم فيه من بؤس ، وطال الحوار بينه وبين أخيه وهما خلف أغنامهما فى الصحراء وانتهى جدالهما برمى قدرى أخاه بحجر فقتله ، ودفنه فى التراب ، ورجع وحده بالأغنام خائفا مرتعدا .

لا ريب أن المؤلف هنا يتبع فلسفة « فرويد » إذ يصف نزعة الشر تتغلب على نزعة الخير حتى تنال ما تريد ، فإذا انتهت عملية الشر بقتل أو جرح أو سرقة ، وغير ذلك ، استنامت غريزة الشر وشعر المعتدى

بالندم والأسف ، وقد صور المؤلف قدرى فى هذه الصورة ، فهو انكر قتل أخيه وتلعثم واضطرب وأخيرا ظهرت الحقيقـة ، لقد كانت ملابس قـدرى تحمل بقعـا من الـدم .. وذهبـا معـا إلى حيث دفن همام فاستخـرجاه وعادا به إلى كـوخهم ، ثم دفن بمقبرة تابعة للـوقف عند باب النصر ، كـان المعزون كثيرين ، وانـدس ادريس فيهم ولكنـه كان يرى أن مصيبته هى بفقد بنته أشد من موت همام .

وجاء الجبلاوى إلى كوخ أدهم ، وعزاه وأخبره أنه عفا عنه ، وأخبره أن الوقف سيكون لذريته .

ترى مـاذا يريد المؤلف بهذا الموقـف ؟ لا أتبين منه إلا أنه تصـوير لتوبة الله على آدم ، أو قبوله تـوبته كما جاء فى القرآن الكريم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» ، «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» .

ومـرت الأيام فمات أدهم ومـاتت زوجتـه أميمة ثم مـات ادريس ، وكبر الأطفال ، وعاد قدرى بعد غيبة طـويلة ومعه هند ـ بنت ادريس ـ ومعهما انتشر العمران وارتسمت الحارة فى صفحة الـوجود ـ ومن كل اولئك جاء أولاد حارتنا .

أذكر هنا أن قصة هابيل وقابيل جاءت هكذا فى القرآن الكريم :

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قـربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك ، قـال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا ببـاسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غـرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سـوءة أخيه ، قال يـا ويلتى أعجـزت أن أكـون مثل هـذا الغـراب فأوارى سـوءة أخى ، فأصبح من النادمين ... »

والآيـات لم تـذكر أسماء ولـدى آدم ، وجـاءت أسماؤهما فى كتب التفسير ، وذكر الشراح لهذا القتل أسبابا منها ، غيرة قابيل لعدم تقبل

قربانـه ، وقد كان بخيلا جدا فلم يقدم إلا شيئـا حقيرا ، وكان أحدهما زارعا والآخر صاحب غنم ، وقيل أيضا إن حـواء كانت تلد ولدا أو بنتا فى كل ولادة لها ، وأن الولـد الذكر يتزوج مـن أخت لم تولد توءمـا له ، وكان من نسلها ابنتان إحداهما حسناء فـاتنة وهى توءم لقابيل ولكنه أراد أن يتزوجها ، وحقد على هابيل أن يتزوجها فقتله .

ومهما يكن من أمر قتلـه ، فإن المؤلف هنا نقل صلب الروايـة وهو التنـافس والقتل وأيضـا الــدفن فى التراب ، ولكنـه زاد فى الموقف نقل جثمان همام ودفنه فى مكان آخر ، ثم تعـزية الجبلاوى لأدهم ، ولست أدرى ماذا أراد بهذا الموقف إلا إلباسه مظهرا شعبيا .

ثم سرقة قدرى هند بنت ادريس وهـربه بها ، وحزن ادريس عليها كل ذلك مما لا تظهر لـه رمزية فى الرواية ، ولكنه تصـوير لنزعة الشر ولفشوها .

جبــــل

جبل هذا شخصية تقابل أو تمثل شخصية موسى عليه السلام ، وموسى عبرانى .

وقصة العبرانيين فى مصر أنهم قدموا إليها منذ عهد يوسف الصديق عليه السلام ، وعاشوا فى مصر آمنين ممتعين وتناسلوا وتكاثروا حتى جاء فرعون لا يعرف يوسف ، ولأسباب يذكرها المؤرخون غضب على العبرانيين ، فأمر بقتل ذكورهم واستحياء نسائهم ، ولما ولد موسى خافت عليه أمه وضعته فى تابوت وألقت التابوت فى اليم ، فدفعت به الأمواج إلى الشاطىء بجانب قصر فرعون فعطفت عليه امرأة فرعون ، وقالت لزوجها نتخذه ولدا عسى أن ينفعنا ، وربى موسى فى بيت فرعون حتى كبر واشتد عوده ، وتعرف أصله فمال إلى العبرانيين ، ورثا لحالهم وما يعانون من تعذيب فرعون لهم فانضم إليهم ، جاء هذا فى غير سورة من القرآن :

« وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخاف ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه

آل فرعون » . «وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له » .

وجاء فى سفر الخروج تفصيل أوسع :

« وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات ... وقال : حينما تولدان العبرانيات ... إن كان ابنا فاقتلوه ، وإن كان بنتا فتحيا ، ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا .

ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا : «كل ابن يولد تطرحونه فى النهر لكن كل بنت تستحيونها» .

وأم موسى « لما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر ، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد ، أخذت له سقطا من البردى وطلته بالحُمرَ والزفت ووضعت الولد فيه ، ووضعته بين الحلفا ، على حافة النهر .

فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل ... فرأت السقط بين الحلفا ، فأرسلت امتها وفتحته ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكى فرقت له ، وقالت : هذا من أولاد العبرانيين .

وتصرف مؤلف القصة « أولاد حارتنا » فى هذا تصرفا غير بعيد ، قال : « منذ عشرين عاما رأت الهانم (هدى هانم امرأة ناظر الوقف) طفلا عاريا يستحم فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار ، ومضت تتسلى بمشاهدته فمال قلبها الذى حرمه العقم من نعمة الأمومة إليه ، أرسلت من حمله إليها وهو خائف يبكى ، وتحرت عنه فعلمت أنه طفل يتيم ترعاه بياعة دجاج ، استدعت الهانم بياعة الدجاج وطلبت منها أن تتنازل لها عن الطفل فرحبت بذلك كل الترحيب ، هكذا نشأ جبل فى بيت الناظر وفى رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة فى الحارة جميعا ،

وأدخل الكتــاب فتعلم القراءة والكتــابة «ولما بلغ رشــده ولاه الأفندى إدارة الـوقف» وكان ينــادى فى كل بقعة فيهــا للـوقف أملاك بــاسم : «حضرة الـوكيل» وتتــابعت نظـرات الاجلال والإكبــار لــه أينما حل، واستمرت حياته ودودا رخية حتى كانت ثورة وتمرد آل حمدان .

ولم يكن المؤلف حريصا على أن يذكر كـل ما جاء فى الكتب المقدسة فقد جاء فى القرآن وفى التوراة أن موسى رُدّ إلى أمه لترضعه، فتربى فى حضنها على أنه ولد لغيرها . جاء فى سفر الخروج :

« فقالت اخته لابنة فرعـون هل أذهب وادعو لك امرأة مرضعة من العبرانيـات لترضع لك الولـد ؟ فقـالت لها ابنــة فرعـون : اذهبى بهذا الولد وارضعيه لى، وأنا أعطى أجـرتك، فأخذت المرأة الولد و أرضعته ولما كبر الولـد جاءت به إلى ابنة فـرعون فصار لها ابنــا، ودعت اسمه موسى وقالت : إنى انتشلته من الماء . »

وفى القرآن الكريم :

« وقــالت لأختــه قصيــه فبصرت بــه عن جنب وهم لا يشعـرون، وحرمنا عليه المراضع من قبل، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم لــه ناصحـون، فرددنــاه إلى أمه كى تقـر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولم يكن المؤلف بحاجــة إلى ذكر شىء من هذا لأنه لم يـذكر أن أم موسى ألقته فى اليم رضيعا، ولكنه ذكـر أنه كان يلهو ويلعب فى بركة ماء، وعمــره ست سنوات فلا حاجــة به إذن إلى الرضــاعة، ولم يضع ذلك شيئا من بهاء القصة وتسلسل أحداثها .

وفى القـرآن أن امـرأة فـرعـون هى التى التقطت الطفل ورغبت فى تربيتــه لديها، وفى التـوراة أنها ابنة فـرعون، والمؤلـف افترض امرأة فرعون عقيما محرومة من نعمة الأمومة، فلا بنت إذن لفرعون تلتقط رضيعا، كذلك ليس هو بحاجة إلى ذكر إلقائه فى اليم .

وجاء فى بعض أقوال الشراح : أن امرأة فرعون كانت عقيما لم تلد ؛ لذلك رغبت فى تبنى هذا الطفل .

ولم يكن من هم المؤلف على أى حال أن يتقيد بالنصوص الدينية .

والمعروف عن حياة موسى عليه السلام أنها مرت بمراحل : ميلاده ونشأته ، ثم قتله رجلا مصريا وهربه إلى مدين ، ثم زواجه من بنت شعيب « يثرون » ثم عودته إلى مصر لاستخلاص بنى اسرائيل من ظلم فرعون ، ثم مقابلة السحرة وانتصاره عليهم ، ثم مجاوزته وقومه البحر ، ثم أخيرا حياتِهِ معهم فى التيه .

ولعرض هذه المواقف كان نفس الكاتب طويلا ممتدا ، وقد مهد لكل مرحلة تمهيدا يتقبل الأحداث التى وقعت بها ، وقد رأينا بداية حياته ، والمؤلف ذكرها عرضا عقب حديثه عن معاناة « آل حمدان » فى مصر ، وآل حمدان هم بنو اسرائيل .

بدأ حديثه بوصف الحارة .. حارة الجبلاوى أطول حارة فى المنطقة ، أكثر بيوتها ربوع ، وفيها ربع أو حى آل حمدان ، أما البيت الكبير فقد ترك على رأس الحارة خاليا من جميع الجهات ، وقد أغلقت أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين ، ومات أبناء الجبلاوى مبكرين ولم يبق من ذريتهم إلا الأفندى ناظر الوقف فى ذلك الوقت ، أما سكان الحارة فكانوا من الطبقة البسيطة الكادحة وراء لقمة العيش .

وأبدع المؤلف فى وصف الحياة الشعبية فى هذه الحارة ، وواتته طبيعته وتذوقه لحياة الشعبيين ، ثم موهبته فى إدارة الحوار ، فأطال فى هذا الوصف ، وغص حديثه بالأسماء الشعبية أو « البلدية » القوم ضعاف ، ولذلك كل شاب يأنس فى نفسه القوة والفتوة يفرض نفسه على الحى الذى يقيم فيه ، ومن أسمائهم : قدرة والليثى وأبو سريع وحمودة ... ولكن الفتوة الذى كانت له السيطرة على الجميع هو «زقلط» ولذلك رأى الأفندى صاحب الوقف أن يستعين به لينفذ

أوامره أو يدفع عنه ما قد يتهدده ، لذلك قربه إليه ورتب له راتبا عظيما من مال الوقف ، وكان بيته يقابل بيت الناظر ، فأقام به مكتفيا براتبه الواسع ، ولذلك هدأت المعارك فى الحارة ، ولم تحدث إلا نادرا .

ولعب الطمع بقلب الناظر فأخذ يغالط فى الحساب ويقتر الأرزاق ثم قبض يده وامتنع عن العطاء مطمئنا إلى حماية «زقلط » واضطر السكان إلى ممارسة المهن الحقيرة ، وزاد عددهم فغرقوا فى البؤس والشقاء والقذارة ، وعمد الأقوياء إلى الإرهاب والضعفاء إلى التسول والسرقة ما استطاعوا ، والفتوات وحدهم هم المنعمون من مال غيرهم .

يلاحظ أن هذه الحال ، ظلت تتكرر فى مصر فى عهود كثيرة من عهود تاريخها الدائم التطور فيها ، ويقول مؤلف الرواية :

« وهذه الحال الكئيبة شهدتها بنفسى فى أيامنا الأخيرة ، صورة صادقة مما يروى الرواة عن الأزمان الماضية »

وكان « شعراء المقاهى لا يقصون على الناس إلا عهود البطولات متجنبين الجهر بما يجرح مراكز السادة ، ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات ، يتغنون بعدل لانحظى به ورحمة لا نجدها ، وشهامة لا نلقاها ، وزهد لا نراه ، ونزاهة لا نسمع عنها » .

كتب نجيب محفوظ هذه العبارات فى الستينات ، وبان فيها ـ كما نعرف من رمزياته ـ تعريضه بما كان فى ذلك الوقت ـ كل هذا والذين يسمعون أخبار مصر فى الخارج يحسبونها ممتعة بسعادة ليست لديهم ، لهذا يقول الكاتب :

« والأدهى الأمر أننا محسودون ، يقول أهالى الحوارى حولنا : يالها من حارة سعيدة ... ونحن لا ننال من الوقف إلا الحسرات ، ومن قوات فتواتنا إلا الإهانات والأذى ، وعلى ذلك كله نحن باقون ، وعلى الهم صابرون ، نتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى يجىء »

وليست الرمزية فى هذا الكلام خيفة ، حكام المحافظات أو المديريات ظالمون وتحت إمرة كل واحد منهم حكام أدنى ، وكلهم ينالون من الناس ولا يرحمون أحدا.

كان آل حمدان يقيمون فى قمة الحارة ، فيما يلى بيتى الأفندى وزقلط ، وكان رئيسهم حمدان صاحب قهوة ، أجمل قهوة فى الحارة ، وكان بها الشاعر يبدأ أنشودته بتحية حمدان وزقلط والثناء على الناظر العادل الكريم ، ويتحدث عن حياة الجبلاوى قبل أن يولد أدهم والسامعون يعرفون أن هذا الثناء زور وتلفيق فيثير الحديث فى نفوسهم لوعة ويحفزهم حفزا للمطالبة بحقهم المنكور ورزقهم المنهوب مما حملهم على تحريض حمدان على قيادة ثورة على الناظر كى يرد إليهم حقوقهم أو شيئا منها ، واستجاب القوم لهذا الرأى فذهبوا إلى الناظر محتجين وعلى رأسهم حمدان وفتوات آل حمدان ، ولدى الباب أراد بواب البيت الكبير أن يصدهم ، ولكنهم دخلوا ، ولم يأذن لهم الناظر بالجلوس ولكنه وقف على السلم يسائلهم عن سبب مجيئهم إليه ، وبذل حمدان جهدا فى تملقه والتلطف إليه ، وشكا الجميع حالهم من الجوع والبؤس ولكن الناظر انتهرهم وقال : « هذا وقف أبى وجدى ما لكم به صلة ، إنكم تتناقلون الحكايات الخرافية وتصدقونها » ولم يجد الحوار معه فتركهم ودخل بيته ولكنه كان مصفر الوجه حذرا من هذه الثورة .

جلس الأفندى وزوجته يتبادلان الرأى إزاء هذه الكارثة ، فاقترحت الهانم أن يسلط الأفندى عليهم زقلط ، ولكنه تخوف جبل فهو من آل حمدان وهو قوى متين ، وطمأنته زوجته بأنه تربى فى بيتهم ولن يخرج عليهم ، وجيء بزقلط فأسرف فى توعده وما سيلقاه بنو حمدان منه ، وعاد جبل من عمله فسمع وعيد زقلط وسبه آل حمدان فلم يرض هذه الاهانة لهم ، وكان حوار بينه وبين الناظر وزوجته ، فأكد لهما أنه لا ينسى فضلهما ولكنه لا يتبرأ من قومه ولا يرضى بما

يعـانونـه ، وذهب جبل لتصفية حسـاب ما جمع من الـوقف ، وذهب جعلص إلى قهـوة حمدان فحطم أدواتها وفـوانيسهـا ، والفتـوات الآخرون وحمدان نفسـه يتلطفون إليـه ، وتفرق النـاس من المقهى ، وهدد زقلط آل حمدان جميعا وأمـرهم ألا يغادروا بيوتهم ولم يسعهم إلا الطاعة .

نال جبلا حـزن عميق لقومه ولأمه حتى النساء اتهمنه بـالخيانة ، فجلس مفكرا حزينا وقطع عليه تفكيره أحـد الفتوات العتاة يطارد أحد بني حمدان المعـروفين حتـى قبض عليـه وأوشك أن يقتلـه والـرجل يستغيث بجبل ، وحـاول جبل أن يسكن الـرجل ولكنـه لم يأبـه بـه فضربه جبل ضربة أفقدته الحياة .

جاءت هذه القصة في الإصحاح الثاني من سفر الخروج :

« وحدث في تلك الأيـام لما كبر موسى أنـه خرج إلى اخوتـه لينظر في أثقالهم ، فرأى رجلا مصريا يضرب رجـلا عبرانيا من اخوته ، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنه ليس أحـد ، فقتل المصرى وطمره في الرمل ، ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان ، فقال للمذنب : لماذا تضرب صاحبك ، فقال : من جعلك رئيسا وقـاضيا علينا ؟ امفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصرى ، فخاف موسى و قال حقـا قد عرف الأمر ، فسمع فرعـون هذا الأمـر فطلب أن يقتل موسى ، فهـرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر »

وجاء في القرآن الكريم في سورة القصص :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهـذا من عدوه ، فاستغاثه الـذى من شيعته على الذى من عدوه فوكـزه موسى فقضى عليه ، قال هـذا من عمل الشيطان إنه عـدو مضل مبين .... فأصبح في المدينـة خـائفـا يترقب ، فإذا الـذى استنصره بالأمس يستصرخـه (يستغيثه) قال له مـوسى : إنك لغوى

مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب ... »

وجاءت فى سور أخرى إشارات إلى هذا الحادث وإلى تخوف موسى « قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » وجاء قول فرعون له : «ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين .. »

ورواية التوراة تختلف بعض الاختلاف عن قصة القرآن مع اتحادهما فى وصف الحادث وخوف موسى وندمه ، ولم يفت المؤلف أن يشير إلى خوف موسى وأسفه وأنه لم يكن يريد قتل المصرى .

وفى الحديث عن المعركة الثانية تبع المؤلف قصة سفر الخروج فى أن المتخاصمين كانا عبرانيين .

وقد أثيرت قصة القتيل وهو فتوة من أتباع جعلص أمام الأفندى الناظر ورجته وجبل جالس معهما فلم يسعه إلا الدفاع عن آل حمدان ، ولكنه لم يذكر أنه قاتل الفتوة المصرى ، وانتهى الحوار بين الناظر وزوجته بأنه آثر أن يترك منزلهما ، وخرج واتجه إلى ربع حمدان حيث حدثت المشاجرة الثانية ، ورأى جبل أنه لا قرار له فى مصر فصمم على الهرب.

أدار المؤلف هذا الحوار فى الموقفين بفطنة تدرك ما يدور فى أعماق النفوس فى مثل هذا الموقف ، وقد كان جبل فى حواره مهذبا يذكر دائما أنه لاينسى فضل هذا البيت عليه ، ولما سأله الناظر : أمعه هو أم مع آل حمدان ، قال : لا أستطيع أن أقف ضدكم ، ولكنى لا أتحمل أن أرى إهانة قومى وأنا فى هذا النعيم عندكم .

وانتهى الحوار ـ كما رأينـا بخروجـه من البيت الكبير ذى الحديقة الواسعـة النفاحة وانضم إلى آل حمدان على مـا هم فيه من شقـاء وما يعانون من المحاصرة وعدم القدرة على الخروج من بيوتهم .

وبهذا انتهت هذه المرحلة من حيـاة موسى فى مصر وخرج منها إلى مدين .

جاء فى سفر الخروج : « وكان لكاهن مـديان سبع بنات ، فأتين واستقين وملأن الجرار ليسقين غنم أبيهن ، فأتى الـرعاة وطردوهن ، فنهض مـوسى وأنجدهن وسقى غنمهن ، فلما أتين إلى رعـوئيل ابيهن قال : ما بالكن أسرعتن فى المجىء اليـوم ، فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة وإنه استقى لنا أيضا وسقى الغنم »

ورعوئيل هو يثرون وهو شعيب .

وتمضى القصة فتذكر أن موسى تزوج « صفورة » بنت رعوئيل ، ومكث عنـده حتى مـات فـرعون ، ولكن اشتـدت العبـوديـة على بنى اسرائيـل فى مصـر ، وسمع الله أنينهـم ، وكان لموسى ولـد سمـاه جرشوم .

وجاء فى القرآن الكريم :

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمـة من الناس يسقون ، ووجد من دونهما امرأتين تـذودان قال مـا خطبكما قالتا لا نسقـى حتى يصدر الرعاء وأبونـا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ، فجاءته إحـداهما تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ... »

« قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ... »

وشعيب نبى ذكرت قصته فى القرآن فى غير آية وغير سورة ، وليس كاهنا ولم يذكر القرآن له سبع بنات ولا ذكر أسماء البنتين .

ولم يشأ صاحب القصة أن يخرج بجبل إلى جهة بعيدة نائية ولكنه جعله يتسلل ليلا حتى خرج من الحارة ، ثم أوغل فى الصحراء حتى وصل سوق المقطم ثم أوى إلى كوخ هناك ليستريح ، وكانت هناك حنفية ماء عمومية ، يملأ الشخص منها إناءه لقاء مليم واحد ، واشتد الزحام حولها وعلا الصياح ، وندت صرخات رقيقة حادة من فتاتين لم يستطيعا ملء آنيتهما فتراجعا من غير ماء ، وذهب إليهما وأخذ يسألهما عن سبب خروجهما بلا ماء ، وكانت إحداهما فاتنة الجمال مست شغاف قلبه ، ولم يقبلا حديثه بادى ذى بدء ولكنهما أخبرتاه بحال أبيهما ، فزاحم وملأ لهما آنيتهما ، وأثناء ذلك قدم أبوهما ، وهو كاهن معروف ورجل يحترمه الناس اسمه « البلقيطى » ـ فشكر لجبل حسن مروءته ، وعرفه بنفسه أنه حاو ، وكان جبل قد سمع بهذا الاسم فسر بلقاء الكاهن الحاوى وقص عليه قصته ، فإذا هو أيضا يعرف الجبلاوى وجعلص ، ثم اصطحبه إلى بيته وفيه حجرة مليئة بالأفاعى ، وهو بيت ريفى متواضع فيه أدواته التى يستعملها فى مهنته ، وأغرى جبل أن يتعلم أعمال الحواة ويكون حاويا .

البلقيطى داهية ماكر يكتشف ما تخفى الصدور من السرائر ، وقد ألم بكل ما دار فى رأس جبل من الأفكار ، واطمأن إليه جبل فقص عليه قصته ، فقال له : هم قوم ظالمون وأنت رجل شهم ، وتبين أن البلقيطى ينتسب إلى حارة الجبلاوى ومن حى حمدان ، وفر من الحارة منذ صغره ضيقا بفتواتها .

وتزوج جبل من بنت « البلقيطى» ، وجد فى تعلم أعمال الحواة فبرع فى هذا العمل حتى أدهش البلقيطى ، واستأنس الثعابين والحيات فكان يعرض أعماله أمام الصبية فيستهويهم وينال الأجر الكثير على عمله . ومرة فوجىء بأحد فتوات بنى حمدان وهو يعرفه وكان يخشى أن ينم عليه ، ولكن الرجل أخبره أن الحال قد تغيرت ، ولكن آل حمدان يعانون مجاعة وهوانا وإهانة .

لم يجعل المؤلف جبل راعيا ، ولم يذهب به إلى مدين ، والحوار الشائق الذى أداره بين جبل والبلقيطى يأخذ بمجامع القلوب ، وقد جعله لا ينسى رفاقه بنى حمدان حتى وهو نفسه آمن مستريح ، كما كان يذكرهم وهو فى البيت الكبير عند الناظر وزوجته .

وبطبيعة الموقف طوى المؤلف حديث خروج جبل بأهله وإيناس نارا من العليقة ونداء ربه إليه أن يذهب إلى فرعون ، استعاض عن ذلك كله بوجود الصديق الذى ظهر فجأة وأخبره بكل شىء فى حارة الجبلاوى ، ومن هنا صح عزمهما معا على العودة إلى حى بنى حمدان وانصرف الزائر وعاد جبل إلى بيته .

بعد شهر أو نحوه ذهب جبل مع زوجه إلى حى بنى حمدان ، ذهبا إليه ليلا ، وطرقا بيت حمدان فدهش برؤية جبل ، وعلم الناس بمقدمه فجاء الكثيرون للقائه وكثرت الأسئلة حوله وعن سبب عودته ، ولكنه فاجأ الجميع بشىء عجيب هو أنه فى الظلام القاتم قابله الجبلاوى وقال له : عد لقومك وطالبوا بحقكم من الوقف .

ومقابلة الجبلاوى حدث استعاض به المؤلف عن رؤية موسى النار فى جانب الطور وأمر ربه له أن يعود لينقذ قومه : ، « إذهب إلى فرعون إنه طغى »

وقد قابل جبل الناظر وزوجته وجرى بينهما حوار مؤدب لا يخلو من شدة ولكن جيل أصر على المطالبة بخلاص قومه واعطائهم حقهم فى الوقف .

كان مع جبل جرابه الملىء بالأفاعى ، وأطلع قومه عليها وأراهم كيف يعاملها ويدربها ، وظهرت فى الحى ثعابين نهش واحد منها ابن زقلط فمات ، وظهر فى بيت الناظر ثعبان كبير أزعج كل من فى البيت ، واستدعوا « جبل » فأخرج ثعبانين وضمهما إلى ما فى جرابه ، وقال له الفتوات : إن فى الحارة أفاعى كثيرة وإنهم يودون أن يطهرها من

الأفـاعى ، فقال: ذلـك عمل سـهل ولكن لابد لـه من ثمن ، والثمن هـو إطلاق سراح بنى حمدان واعطاؤهم حقهم فى الوقف .

وجمع الناظر الفتوات فرأوا أن الموقف حرج جدا ، وأن بنى حمدان إذا أخـذوا حقهم فى الـوقف فسيطـالب الآخـرون أيضـا بحقـوقهم ، وأخيرا استقر رأيهم على إبادة بنى حمدان .

لجأ جبل وقومـه إلى حيلة ناجحـة ، فحفروا فى دهليز الـربع حفرة غطـوها بغطـاء واهن وواروها بـالـرمال ، وجـاء الفتوة الكبير ومعـه فتواتـه الآخرون فهـددوا سكان الـربع ولكنهم ما كـادوا يخطون إلى الداخـل حتى انهار بهم غطاء الحفرة وسقطـوا فيها ، فـانهالت عليهم النبابيت والأحجار ، ومـات الفتوة الجبـار الذى كـان الناظـر يتخذه سندا وأداة له .

ذهب آل حمدان ومن انضم إليهم من كانـوا يخافون الفتوة الكبير إلى بيت النـاظـر وهم يهتفـون بحيـاتـه ، ولكن لما جـاء جبل أمـرهم بـالانصراف ودخل هو ليقـابل النـاظر ، وطلب منـه حق آل حمدان فى الـوقف ، ولم يسع النـاظر المرتجف الخائف إلا الموافقـة ، وظفـر آل حمدان بـوقفهم وجـاء الآخرون يطلبـون من جبل حقهم أيضـا ، فلم يصغ لمطلبهم .

لم يشأ جبل أن يكـون فتـوة الحارة ، ولم يشأ أن يستأثـر بشىء لنفسه فوق ما أخذ الآخرون ، وأجرى العدل بينهم فى كل شىء ، حتى فى القصـاص وباتت الحارة فى أمان .

ماذا يقصد المؤلف بهذا الموقف كله ؟

هى قصة موسى وفرعون ، وظلـم فرعون وانتصار موسى ، ولكن « جبل » هنـا لم يخرج ببنى حمدان من مصر كما خـرج مـوسى ببنى اسرائيل ، ولم يفارق حمدان ولا فارقت « جبـل » ولا أحد من الجماعة كلها فارقتـه أنانية حرصـه على التعالى وازدراء الآخرين حتى وهم فى

أيـام محنتهم ، ولعل المؤلف أراد بهذا تصــويــر التعـالى اليهـودى ، واستشعار اليهود دائما أنهم الشعب المختار ، ولهذا كان «الجبلاوى» بجانبهم ونصيرا لهم ، والناس جميعا عيـال الله وخلقه ، ولكن اليهود هم الذين اختـارهم الله ووعدهم بامتـلاك أرض واسعة ، هذا زعمهم ، وقد تردد فى القصة أن أبناء الحارة جميعـا لهم أوقاف مغصوبة ولكن « جبل » بعد انتصاره قال لهم : إن الجبلاوى أوصاه بقومه فقط .

هذه حقـا هى أنانيـة اليهود وحـرصـهم على العمل لأنفسـهم ، دون غيرهم ، فهم يستفيـدون من النــاس ولا يفيـدونهم ، ولهم تـدبيرهم الخفى وحسن التـأنى لمواجهـــة الأحــداث ، ولـــذا يقــول جبل : إن الجبلاوى أوصاه بقومه فقط ، فهذه إحدى رمزيات المؤلف .

رفاعة

رفاعة هذا هو الشخصية التى اختارها المؤلف لتكون رمزا للمسيح عليه السلام ، والمسيح لم يولد فى أورشليم ولا الناصرة ، ولكنه ولد فى بيت لحم ، إذ كان القيصر أمر بإجراء تعداد للسكان وكل واحد يسجل فى البلد الذى ولد فيه ، فاضطرت السيدة مريم ويوسف النجار خطيبها ومن معهما أن يذهبوا إلى بيت لحم حيث جاءها المخاض هناك وولدت يسوع .

وحرصا على الإشارة لولادته بعيدا عن البلد الذى كانت تقيم فيه مريم ويوسف النجار ، جعل المؤلف الشخص الذى أطلق عليه اسم الشافعى يخرج هو وامرأته مضطهدين إلى سوق المقطم ، ولتمصير القصة وإلباسها ثوبا شعبيا لم يتقيد الكاتب بالنصوص الدينية ، ففى الأناجيل وفى القرآن أيضا أن المسيح ليس له أب بشرى ، وأن الله نفخ فى جوف مريم هذا المولود ، وقد كانت مريم فى كفالة زكريا زوج خالتها وخطبها نجار يدعى يوسف ، وكانت له قبلها زوجة ماتت وله منها أولاد ، وظهرت على مريم أعراض الحمل قبل أن يعرس بها خطيبها فقال اليهود : إنه تعجل قطف الثمرة قبل نضجها ، وظل يوسف مرافقا لها وعنى بها وبالمسيح حتى نهايته .

عندما أعلن المسيح رسالته كانت مساوىء اليهود وسوء تصرفاتهم فاشية فى وسطهم ، وكانت فرقهم العديدة من الفريسيين والصدوقيين والآسيين والشيوخ والكتبة .. كلهم — مع ما درسوا وعلموا — يعبدون المادة ولا يعنيهم شىء مثل ما يعنيهم جمع المال ، وهم مع مفاسدهم يعيبون الآخرين ، وكان المسيح يهيب بهم : «يا أولاد الأفاعى ترون القذاة فى أعين الناس ولا ترون الخشبة فى أعينكم» .

وقد استعاض المؤلف عن هؤلاء بالفتوات الذين بسطوا سلطانهم على الحارة وخافهم أهلوها ، وهم فى قرارة أنفسهم غير راضين عنهم .

ودعنا من قبل حديث جبل الذى يقابل شخصية موسى عليه السلام ، وموسى جاء بالتوراة والوصايا العشر ، وتتابع من بعده الرسل لهداية بنى اسرائيل ، لكن شريعة موسى بدلت واندثرت ، وظهرت جماعات تنتسب إليها ولا تعمل بشىء منها ، ولذلك لما ظهر رفاعة كانت الحارة قد تغيرت ، وذهب فتواتها وظهر آخرون ، وتغير الناظر وأعوانه — أما الجبلاوى - فظل رابضا فى قصره أو على الأصح فى حجرته ، والناس يترقبون كلمة منه تصلح حالهم وترد للمظلومين حقوقهم ، ونجد لمحات الظلم فى مثل هذا التعبير الذى جاء فى كلام الشافعى :

ما أجمل الحياة لولا وجود زنفل (الفتوة) الحياة عامرة بالخيرات والهواء النقى والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة ، ولكن فيها أيضا ناظر الوقف والفتوات ... وفى الإمكان أن يصير كل ربع كالبيت الكبير ، وأن ينقلب الأنين ألحانا ولكن المساكين يتمنون المحال كما تمناه أدهم (آدم) من قبل ، ومن هم المساكين ؟ إنهم أقفية متورمة من الصفع ، وأدبار ملتهبة من الركل ، وأعين يرعاها الذباب ، ورؤوس يعيش فيها القمل . أين الجبلاوى ؟

- افترض المؤلف أن « الشافعى » غاب عن الحارة عشرين عاما ، ذلك ليهيىء لرفاعة عمرا يستطيع فيه أن يعظ ويرشد ويعلم .

كانت رسالة المسيح هى الدعوة إلى اتباع تعاليم التوراة ، ولكنها تركزت على تطهير النفوس من الأحقاد وإشاعة المحبة بين الناس ، وعمل الخير للجميع ، والرواية تشير إلى ذلك فى غير موضع من محاوراتها .

كان كهنة اليهود قد أغلقوا باب التوبة ، وكانت الزانيات يرغبن فى التوبة فلا يجدن فى رأى الكهان لها قبولا ،لكن المسيح فتح بابها لهن ، وقال : إذا لم يغتسل المدنسون فى النهر فأين يغتسلون ، وأهاب بمن حوله : أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم سامحوا من أساء إليكم ، وجاءوه مرة بامرأة زانية يريدون رجمها ، فقال : تريثوا قليلا اغمضوا أعينكم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ، وإلا فلينصرف . وبعد دقائق لم يبق فى الموقف غيره وغير المرأة ، قال : اذن انصرفى .

ولعل شخصية ياسمينة التى اخترعها المؤلف تشير إلى ذلك , فقد جاءوا بها يريدون قتلها لأنها كانت فى بيت أحد الفتوات المنحرفين ، ولكن رفاعة قال لهم : أنا أتزوجها ، وتزوجها فعلا ونجت من القتل ، ولكن مريم النامطية الزانية أكبت على أقدام المسيح تقبلها وظلت محبّة له ، أما ياسمينة فظلت على علاقتها بعشيقها ثم أخيرا وشت برفاعة .

لم يتقيد المؤلف بسيرة المسيح كما جاءت فى الأناجيل لأنه يريد قصته أن تكون ذات طابع شعبى ، فيه المقاهى والصور ، وفيه الأكاذيب والخداع وأكل أموال الآخرين بغير حق .. وفيه .. وفيه ، وقد كان المجتمع اليهودى فى عهد السيد المسيح يموج بكل هذه المحرمات .

افتتح الشافعى ـــ والد رفاعة ـ دكان تجارة ، وبدت بوادر الربح تهبط عليه ، ولكن ابنه لم يقبل أن يعيش معه فى هذا العمل ، وجنح إلى

الدعوة لإشاعة الحب والسلام ، كان أهل الربع وأهل الحارة لا يشغلهم الحديث عن الوقف وحقهم فيه الذى سلبه الناظر وفتواته كما كان الحال فى عهد جبل ، ولكن جبل انتصر أخيرا ، ولم يخلف انتصاره على قومه سعادة طويلة المدى ، ورفاعة لا يعنيه الوقف ولا الحصول على مال وكل ما يعنيه هو إيثار الحب والسلام . ولكن «كيف يتسنى للحب والسلام أن يعيشا بين الفقر ونبابيت الفتوات» هذا ما كان يجيب به الناس حين يدعوهم لمذهبه .

ولعله لشيوع الظلم الرومانى وثقل الضرائب وضيق الناس بهذا الحكم كثر فيهم المفلوجون والمرضى والصرعى ، وكثر فيهم لذلك الروحانيون ومن يحترفون علاج الشياطين وإخراج العفاريت من الأجسام ، وللمسيح فى هذا مواقف كثيرة تذكرها الأناجيل ، وأورد المؤلف شخصية « أم بخاطرها » تخلص الممسوسين من عفاريتهم ولديها جميع ما يحبون من بخور سودانى وتعاويذ حبشية وأغان سلطانية ، وتقول : لكل إنسان عفريت هو سيده ، ولكن ليس كل عفريت فى إنسان يجب أن يخرج .

واستهوت رفاعة أحاديث هذه السيدة ، ورأى على جدار المقهى صورة للجبلاوى ضخمة تبدو البيوت بجانبها كعلب الكبريت ، فتعلق بها قلبه ، وسأل هل من رآه ؟ لم يره أحد . وهذه صورة خيالية صورها مصورها حسبما سمع من الناس ، ولكن « جبل » قال : إنه قابله فى الظلام وسمع كلامه ولم يتبين ملامحه ولم ير شخصه ، وظل رفاعة متعلقا بهذه الشخصية ورغب عن كل شىء من المتع المادية ، حتى أن فتوة الحارة اللصيق بناظر الوقف رغب أن يزوجه ابنته الحسناء الفاتنة فلم يسترح لهذا العرض ، وكانت أمه تغريه بالزواج منها ولكنه أعرض كل الاعراض ، وعجب أبوه لهذا المذهب منه ، ولكن هذا الذى حدث .

تغيب رفاعة عن محل أبيه وبيته مدة حتى شغلهم القلق لغيابه ،

وتحدث بـه الناس ، وذهب كل واحـد يلتمس سببـا ويفترض مكانـا تغيب فيه ، وفى الأناجيل أنه أصعد إلى البرية وصام أربعين يوما ، وهو لما سمع أن يـوحنـا المعمـــدان قبض عليـه انصرف إلى الجليل وتـرك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، فذكر المؤلف هذا الغياب يشير إلى ذلك وجـاء فى كلام رفـاعة : « ضقت بحيـاتى فذهبت إلى الخلاء ، شعـرت برغبة فى الوحدة والخلاء ، ولم أكن أتركه إلا لشراء الطعام »

وكانت الخلوة فى البرية أو على رؤوس الجبال عادة الأنبياء من بنى اسرائيل .

وعن بداية الوحى للمسيح وتلقيه الأمر بـدعوته جاء فى الرواية على لسان رفاعة :

« أمس عقب خروجى من بيت الشاعـر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى الانطـلاق فقصدت الخلاء ، مشيت فى الظلام حتى تعبت ، ثم اخترت مكـانـا أسفل ســور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسنـدا ظهرى إلى الســور ، سمعت صوتـا غـريبا يتكلم ، كأنما كـان يحدث نفســه فى الظلام ، فـدهمنى شعور مشرق بـأنه صـوت جدنـا الجبلاوى ، وقـد قمت عند استماعى الصوت فاستـدرت نحو البيت ، وتـراجعت إلى الـوراء لأتمكن مـن رؤيتـه ، ولكنى لم أر إلا ظـلامـا ، سمعت الصوت وهـو يقول : « أما جبل فقـد قام بمهمته ، وكـان عند حسن الظن به ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه » .

« هتفت قائلا : يا جدى جـبل مـات ، وخلفـه آخـرون ، فمـد إلينـا يدك ـ »

جدى سمعنى ، وجاءنـى صوته قائلا : « ما أقبح أن يطـالب شاب جده العجـوز بالعمل والابن الحبيب من يعمل » فسألتـه : وما حيلتى حيال أولئك الفتوات ، أنـا الضعيف » فأجابنى : « الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الأغبياء »

« وأعـرف الآن ما يـراد منى ، نعم إنى ضعيف ولكن لست غبيـا ، والابن الحبيب من يعمل » !

وحزن الـوالد لهذا الكلام إشفـاقا على ولده ولكنــه طمأنه بأنهم لا يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف وهو لا يتطلع إليه .

وقال لوالـده : إن الذين قبله طالبـوا بالوقف ليظفـروا بحياة رغدة هادئة ولكـن مادام الحصول عليهـا ميسورا بغير الـوقف فما أرخص الوقف » .

ويـدور هنا حـوار وتطفو فى ذهن الـرجل وأيضا فى ذهن زوجتــه خواطر وكلهـا تصور العراك بين طلب الحياة الماديـة ونشدان الحياة الروحية والمعنويات .

وقــرر رفاعـة أنه لن يكـون مثل «أم بخـاطرهـا» تنتظر الأغنيـاء ليحضروا إليها وتنال مـن مالهم ، أما هو فقرر الـذهاب إلى المرضـى فى بيوتهم وهو لا يقبل على عمله أجرا ، وانقطع عن دكان أبيه وعن العمل فيـه وعن أى عمل سوى آل جبل ودعـوتــه لهم ليخرج العفـاريت من أجسامهم .

يبدو أن العفاريت فى هذه الرواية رمــز للأحقاد الدفينة فى النفوس والترامى على المادة ومراءاة النــاس ، فقد كـانت دعوة المسيح مـركزة على تطهير النفـوس ومحاربة الـرياء ، وإخــلاص الأعمال لله ، وكـان يقول لتلاميذه : « احترزوا من أن تصنعـوا صدقتكم أمام الناس لكى ينظروكم ، وإلا فليـس لكم أجر عند أبيكـم الذى فى السماوات ، فمتى صنعت صــدقــة فـلا تصوت أمـامك بـالبـوق كما يفعل المراءون فى المجامع والأزقة لكى يمجدوا من الناس» .

ومن جـانب آخـر كـان يحارب الشياطين ، ففى انجيـل لوقـا أنــه استقبلـه رجل من المدينة كـان فيه شيـاطين منــذ زمن طويل ، وكـان لايلبس ولا يقيم إلا فى القبـور ولما رأى يســوع صرخ وخــر لــه وقــال

بصوت عظيم : مالى أطلب منك ألا تعذبنى ، لأنه أمر الروح النجس أن يخرج من الانسان .

وفى موضع آخر : أن رجلا شكا إليه أن ابنه الوحيد تقمصه روح فيصرخ بغتة ويصرخ مزبدا ... وقدم الابن إليه وبينما هو آت مزقه الشيطان وصرعه ، فانتهر يسوع الروح النجس وشفى الصبى .

فالرمزية قد تشمل الأمرين ، ولكنا نجد رفاعة هذا يعترض الأصحاء ويعرض عليهم أن يطهرهم من العفاريت الشريرة التى بهم ، حتى «أم بخاطرها» التى هى كبرية زار وتعمل على إخراج الشياطين من الناس يميل عليها رفاعة فى رفق ويقول لها : « هلا سمحت لى بأن أطهرك أنت مصدر خير وبركة ولكنك لا تخلين من طمع يحملك على الاتجار بالمرضى ، ولو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن » .

وكان يقول : « إن جدنا يسود لنا السعادة» ورد ذلك ضمن أقواله لجبل وذلك إشارة لما كان يدعو له المسيح قومه إلى اتباع التوراة التى تلقاها موسى .

ويورد المؤلف قصة المرأة التى دعته لشفاء ابنها الممسوس واستجابته لها ، وهى بنفسها القصة المذكورة فى الأناجيل ، ويقول لزوجته : « ستكونين أفضل وأجمل عندما تقهرين الغرور ، ليس آل جبل بخير الناس فى حارتنا ، خير الناس أطيبهم » وقد كان المسيح ـ عليه السلام ـ يقول لأتباعه : لا تقولوا إننا ذرية إبراهيم ، إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أبناء لابراهيم .

ويقول لزوجته : «كنت مخطئا مثلك ، فخصصت آل جبل باهتمامى ، ولكن السعادة لا يستحقها إلا من ينشدها مخلصا ، انظرى إلى الطيبين كيف يقبلون على وكيف يبرأون من العفاريت »

وهذا ناظر إلى أمر المسيح لأتباعه أن يبشروا ويدعوا الخراف الضالة من بنى اسرائيل ، ولما لم يستجب الاسرائيليون أمرهم أن

يدعوا الناس جميعا ، وضرب مثلا بالرجل الذى أعد طعاما ودعا إليه قوما معينين ولما لم يحضروا أمر بنداء الناس جميعا من كل مكان .

أعرض الاسرائيليون وخصوصا رجال فرقهم الدينية عن دعوة المسيح وناصبوه العداء ، أما الآخرون الذين شفى مرضاهم فأحبوه ، وكانوا يتحدثون به وبعمله . وعرض المؤلف عددا من الذين برئوا على يديه بأسماء ابتكرها وأمراض عديدة كانوا يشكونها ثم صاروا ببركة عمله أصحاء سعداء وكانوا يقولون له : أنت سر سعادتنا ، سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لاحظ لنا فى الوقف ، وهو يقول لهم : لم يستطع جبل أن يغير النفوس بنيله حقه فى الوقف ، ولما رحل انقلب الأقوياء مغتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع ، أما أنا فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه .

الحق أن المؤلف أحسن تصوير مسلك المسيح ودعوته الروحية لإصلاح القلوب وتطهير النفوس وإعراضه عن المال والمادة ، وكان يقول لتلاميذه : «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون ، لا تقدروا أن تخدموا الله والمال ، لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ... »

وهذا هو ما يكرره رفاعة عن احتقار الوقف واعراضه عن المطالبة به لآل جبل واهتمامه بتطهير النفوس وإخراج العفاريت من الأجسام ، حتى لنجد زوجته تقول : إنه لا يعنيه غير إسعاد الفقراء .

جاء فى انجيل متى : « وإذ كان يسوع ماشيا عند بحر الجليل أبصر أخوين ، سمعان الذى يقال له بطرس ، واندراوس الذى أخاه يلقيان شبكة فى البحر ، فإنهما كانا صيادين ، فقال لهما : هلما ورائى فأجعلكما صيادى ناس ، فللوقت تركا الشباك وتبعاه ، ثم اجتاز من

هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زيدى ويوحنا أخاه فى السفينة فدعاهما فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه »

وفى الرواية أيضا أن رفاعة اختار اربعة ذكر أسماءهم ، ولما قال لهم إنى لاأصلح للعمل وحدى وأريدكم أن تعملوا ، فرحوا فأخذ يوصيهم ، وجاء فى وصيته : « ... طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للاتقياء القلب ،لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام ، ... طوبى للمطر ودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى لكم ، إذا عيروكم وطردوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ، افرحوا وتهللوا ، لأن أجركم عظيم فى السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم »

والرواية فى غير موقف تبدى إعراض رفاعة عن المال وعن الوقف والدعوة فقط إلى التطهر ، رغم ما كان يقابله ويقابل أتباعه من متاعب .

وأخيرا يأتى الحديث عن نهاية رفاعة ، والكاتب يقرب بها صفة نهاية المسيح ، وكان السيد المسيح فى نهاية أيامه مطاردا من الجيش الرومانى ، وكان يسهر الليل يشكو برحاءه ووجده ، وينام حواريوه من حوله ، فيقول لهم : أسهر وتنامون ، وكان يذكر لهم أن واحدا منهم سيخونه ويشى به ، وكان الخائن منهم هو يهوذا الاسخريوطى فهو الذى قاد الجنود إليه.

وأشار المؤلف إلى هذا الموقف فجعل ياسمينة زوجته الداعرة التى انقذها هى التى تشى بأسراره وما اعتزم عليه من الهرب هو وحواريوه ، وتنهى كل ذلك إلى بيومى كبير الفتوات وأشدهم جحدا ، وبينما كانوا يحاولون الهرب فاجأهم بيومى ، فقبض على رفاعة بيد حديدية ، وانضم إلى بيومى فتوات آخرون ، وانهالوا جميعا ضربا بالنبابيت على رفاعة حتى مات ، فحفروا له حفرة ألقوه فيها وهالوا عليه التراب .

ونهاية المسيح فى الأناجيل تختلف عن هذا الوصف ولكنه اختلاف غير بعيد ، كل من الوصفين ذكر الظلام ، وجاء فى الرواية أن رفاعة هتف باسم الجبلاوى وتمنى لو يخلصه ، وجاء فى إنجيل لوقا : وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة ، وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه ونادى يسوع بصوت عظيم ، وقال : «يا أبتاه فى يديك أستودع روحى ، ولما قال هذا أسلم الروح .. » وهذا يقابله نداء رفاعة : يا جبلاوى .

وقد أسف حواريو المسيح لأنهم أنكروه وتركوه للمهانة والعذاب ، وقالوا : إن هذا كان جبنا منهم ، وجاء فى الرواية حوار بين أصحابه يتلاومون ، وواحد منهم يقول لرفاقه : يا جبناء ما أنتم إلا جبناء ، لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبننا .

قتله خصومه وانصرفوا فى الظلام وجاء أصحابه الأربعة فتلمسوا مكانه واهتدوا إلى الحفرة التى دفن فيها ، فأزاحوا عنه التراب واستخرجوه فلفوه فى ثيابهم ومضوا إلى مقبرة أحدهم فغيبوه فيها ، ورثوه والعبرات تتساقط من أعينهم :

« كانت حياتك حلما قصيرا ، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء ، وما كنا نتصور أن تغادرنا بهذه السرعة فضلا عن تقتل بيد أحد أبناء حارتنا الجاحدة التى داويتها واحييتها . لولا حبك الباقى فى قلوبنا لمقتتنا الناس إلى الأبد» .

وهذا تصوير لما لام به حواريوه أنفسهم . كان فراق رفاعة أشد من الذبح على قلوبهم ، وكان تخليهم عنه معذبا قاتلا ، ثم اختفوا بعيدا عن الحى .

وشاع بعد ذلك نبأ قتله وذهب الناس يبحثون عنهم فهدتهم بقع دم إلى المكان الذى قتل فيه وحفروا مدفنه ولكنهم لم يجدوا شيئا .

ونذكر نهاية المسيح كما جاءت فى الأناجيل لنرى مدى تصرف المؤلف فيها ، وكيف ألبسها هذا الثوب .

بعد أن علق المسيح على الصليب، جاء رجل اسمه يوسف ... تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع ، وأنزله ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط ... وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده ، فرجعن واعددن حنوطا وأطيابا .

ثم فى أول الاسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذى أعددنه ومعهن أناس فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر ، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع .

وفى انجيل مرقس تصوير آخر فيه :

فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح .

وكانت أيضا نساء يصرخن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة ... وأخر كثيرات .

جاء يوسف الذى من الرامة ... فتجاسر ودخل إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع ... فاشترى كتانا ، فأنزله وكفنه بالكتان ووضعه فى قبر كان منحوتا فى صخرة ودحرج حجرا على باب القبر ، وكانت مريم المجدلية ، ومريم أم يوسى تنظران أين وضع .

وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم ام يعقوب وسالومة حنوطا ليأتينه ويدهنه ، وباكرا جدا فى أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس .... فتطلعن ورأين أن الحجر قد دحرج .

واختلفت صورة قيامة المسيح من قبره فى الأناجيل ولكن المؤلف حرص على أن يذكر أن الذين جاءوا لم يجدوا فى القبر أحدا ، وافترض أنه نقل إلى مقبرة لأحد أصحابه .

وبعد نهاية المسيح على الأرض كثرت الأقاويل واختلفت الروايات فى مقابلة أصحابه ، والمسيحيون يعتقدون أنه رفع إلى السماء فى سحابة ارجوانية وجلس **عن يمين أبيه فى السماء .**

وجاء فى القصة : « وتناقلت الحارة قصة رفاعة ... وتنوقل أيضا أن جثته ظلت ملقاة فى الخلاء حتى حملها الجبلاوى بنفسه فواراها التراب فى حديقته الغناء ... » وهذا ما يقابل الرفع إلى السماء .

لم يدع الرومان عداء المسيحيين بعده ، فكان هؤلاء يجتمعون سرا ويتخذون قرارات ، وعانت المسيحية اضطهادات كثيرة أليمة ، لكن الدولة أخيرا اضطرت إلى التسليم بالمسيحية واقرارها دينا رسميا للدولة ، ثم أخذت تذيع وتنتشر .

وصور المؤلف هذا الانهزام أمام أتباع رفاعة فقال :

«كادت الأحداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لولا أن اختفى الفتوة حندوسة اختفاء مريبا ، وإذا بجثته .. ذات صباح ملقاة مشوهة أمام بيت الناظر ...

ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب ، انصب الاعتداء كالمطر على كل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو أحد من رجاله ، انهالت النبابيت على الرؤوس ، وهرست الأقدام البطون وحفرت اللكمات الصدور ، وألهبت الأيدى الأقفية حتى حبس نفسه فى داره من حبس ، وهجر الحارة من هجر وقتل فى الخلاء من استهان بالخطر ... ومن عجب أن ذلك كله لم يقض على عمل العاملين» .

هذا تصوير لامتداد الدعوة المسيحية واستمرارها رغم الاضطهاد .

وتذكر الرواية ظهور أصحاب رفاعة الذين اختفوا وأنهم قاموا بثورة هوجاء فقتلوا الفتوة الأكبر بيومى وفر أعوانه ، واستطار الشر وانقض على من بقى من الفتوات وأعوانهم :

« عند ذلك أرسل الناظر فى طلب على فذهب على لمقابلته ... فهدأت

الأحـوال وسكنت الخواطر » وعلى هـو أحـد الحواريين الأربعة الـذين اختارهم رفاعة .

وتمخضت المقابلـة عن عهد جديد ... وعـاد إلى الحى الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة فى فترات الارهاب .

وجدت الـدولة الرومـانية نفسهـا أمام دين آخذ فى الانتشـار وأنه يهدد وحدة الدولة ، فاضطر الامبراطور أن يفـرضه دينا للدولة كلها ، وعاقب من لم يتخذه دينا ، وحظـى المسيح بتكريم لم يظفر ببعضه فى حياته ، وتدارس المسيحيـون فى كل مكان أنه رفع إلى السماء وأنه حى هناك .

وجاء فى الـرواية : «وحظى رفاعـة فى موتـه بما لم يكن يحلم به فى حياتـه من التكريم والاجلال والحب حتى صـار قصة باهرة يـرددها كل لسان ... وبخاصة رفع الجبلاوى لجثته ودفنها فى حديقته الغناء ، وقد أجمع الرفاعيون على ذلك» .

وتنـوعت اتجاهـات المسيحيين فى عبـاداتهم وسلـوكهم الـدينى ، فهناك الرهبـان الذين حرموا على أنفسهم الـزواج ووقفوا حياتهم على خـدمة الانسـانية والبتـولة ومسـاعدة كل من يحتـاج إلى مساعـدة ، وهناك من رأوا عبـادة الله والقربى إليه فى السلوك المستقيـم والدعوة إلى الرحمة والمحبة ولكنهم تزوجوا .

وجـاء فى الـروايـة : «لكنهم اختلفـوا فيما عـدا ذلك ، فأصر كـريم وحسين وزكى على أن رسـالـة رفـاعـة يجب أن تقتصر على مـداواة المرضى واحتقار الجاه والقوة ... وغالى منهم قوم فتجنبوا الزواج حبا فى محاكاته ... أما على فتمسك بكافة حقوقه فى الوقف» .

« وعلى أى حـال استبشر النـاس خيرا واستقبلوا الحيـاة بـوجـوه مشرقة »

هذه قصة المسيح عليه السـلام وجهاده فى سبيل الحق ودعوته إلى المحبة كما طـاب لنجيب أن يصورهـا ، ونحن نختلف معه فى كثير من مواقفها خصوصا المواقف التى تتعلق بالجبلاوى .

قاسم

هذه هى الشخصية التى تمثل نشأة وجهاد نبى الإسلام محمد ﷺ - ولعله ليس من قبيل المصادفة أن اختار هذا الاسم . فكما اختار من قبل أسماء قريبة أو شبيهة بأسماء الذين تحدث عنهم ،فاختار لآدم أدهم ولإبليس ادريس . اختار اسم قاسم - لأبى القاسم محمد ﷺ - والصفات التى ذكرها والأحداث التى أوردها تنطبق عليه ، ولكنه على عادته - حوّرها أو اخترع لها حدثا مشابها .

وقاسم نشأ يتيما وتربى فى كفالة عمه زكريا ، ورسول الله محمد تربى فى كفالة عمه أبى طالب ،واشتغل فى صباه برعى الغنم ، واشتهر بين قومه بالصدق والأمانة .

وقاسم كان راعى غنم ، كان يجمع الأغنام من أصحابها ويصعد بها فى الصحراء، ويعود بها آخر النهار ليوزعها على اصحابها ، وكانت هذه هى مورد رزقه ، على أنه يجد لدى عمه طعامه ومأواه .

أضفى المؤلف على مواقفه كلها صبغة شعبية ، وجعل أهل الحارة على ما كانوا عليه ضعافا فقراء يخضعون لسلطة جماعة من الفتوات يلقون عليهم أوامرهم ويشاركونهم أرزاقهم أو يغتصبونها كلها ،

وأهل الحارة جميعا لهم نصيب من وقف الجبلاوى ، ولكنهم لايصلون إليه أو لا يصل إليهم ، والجبلاوى معتكف فى حجرته فى قصره ويموت نظاره ، فيعين بدل الناظر الذى يموت ناظرا غيره ، وهو لا صلة له بالجماهير ولا يستطيع أحد أن يقابله ، ولكن إلى يمين البيت الكبير بيت الناظر ، ويقابله بيت الفتوة الذى يستعين به الناظر ويسلطه على الناس .

وفيما بعد البيت تتميز ثلاثة أحياء ، حى جبل الذى حل محل ربوع حمدان ، ثم حى رفاعة فى وسط الحارة ، ثم يأتى بعده بمسافة حى الفقراء جدا الذين لاصفة لهم ولا نسب ، ويسمون « الجرابيع » ولكل حى فيها جميعا فتوة ، وسهرات المقاهى لاتزال كما هى ، وشاعر المقهى يتحدث عن أدهم وإدريس وهمام وقدرى ....والناس يستمعون ويشربون ، ولكن حى جبل معتز بنفسه مباه بقرابته من الواقف ، ويرى أنه خير حى ، والمؤلف يشير بهذا إلى ما يعتقد به الاسرائيليون أنهم شعب الله المختار « ولذلك قلّ أن أحبهم أحد » .

وحتى الجرابيع كان لهم فتوة واستقرت الأوضاع على ذلك ، وحملة النبابيت الفتوات يؤكدون للناس أنهم يجرون على تعاليم ووصايا الواقف العشر ، والشعراء يمجدونهم ويكررون الثناء عليهم .

وأورد المؤلف بضعة أحداث بعيدة عن حياة النبى محمد ونشأته ربما ليبرر عمله ويوهم أنه يقصد فقط مجرد شاب فى الحارة ، ولكن مهما ذكر فرمزياته واضحة قريبة . من ذلك أن «قاسم» هذا دخل حديقة البيت الكبير واستحم فى فسقيتها ثم انتهره الناظر وطارده البواب .

وشب قاسم وقال لـ عمه : اعمل معك ، فقبل . ففرح ومضى أمام عربته ـ وهو بائع بطاطا ـ ينادى عليها ، ويبدو أن هذه الحادثة فى مقابلة رحلة النبى ﷺ مع عمه إلى الشام فى تجارة .

وقد قابل العم وابن أخيه رجلا عجوزا فرّحب بهما وألبس قاسما حجابا ، ولعل هذا أيضاً فى مقابلة بحيرا الراهب وتنبئه بأمر محمد ﷺ وكان لايزال طفلا أنه سيكون نبيا ويكون له شأن عظيم .

وجاء فى كتب السيرة أن رسول الله ﷺ صبَّ بعمه أبو طالب ـ تعلق به ـ وهو متهيىء للرحيل إلى الشام ، وكان عمره تسعة أعوام فى بعض الروايات واثنتى عشرة سنة فى أشهر الروايات . فأمسك بناقة عمه ، وقال ياعم : إلى من تكلنى ؟

فرَّق له عمه واصطحبه معه وأردفه خلفه ، ومر ركبهم بصاحب دير قريب من بصرى ، وكانوا يمرون به من قبل فلا يعبأ بهم ولا يخاطبهم ، ولكنه فى هذه المرة استضافهم وعمل لهم وليمة وطلب أن يحضروا جميعا . أحرارهم ومواليهم ، سادتهم وأتباع سادتهم ، كبارهم وصغارهم ، فقال له رجل منهم لصاحب الدير ، وهو بحيرا الراهب : إن لك اليوم شأنا ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وكنا نمر عليك كثيرا .. واجتمعوا لديه كلهم وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه ، ونظر بحيرا فى القوم فلم ير فيهم أحدا له الصفة التى يريدها ، فسألهم : هل تخلف منهم أحد ؟ . فقالوا ما تخلف أحد إلا غلاما هو أحدث القوم سنا ، فقال : لا ، لاتفعلوا ، أدعوه فليحضر ، وأحضره عمه الحارث بن عبد المطلب ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه ، وبعد الطعام أخذ يسأله عن أشياء من حاله ورسول الله ﷺ يجيبه ، ثم أخذ يسأل عمه أبا طالب عنه ، ثم قال له : ارجع بابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه يهود ، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم ... فهذا يقابله إلباس يحيى له الحجاب ووصيته له با لمحافظة عليه .

أما دخول قاسم حديقة البيت الكبير وتمتعه بشذاها ومائها ، فلا مغزى لها بعد فى القصة ، وربما كانت إشارة إلى رحلة المعراج لولا أنه ذكر هنا أن البواب والناظر طرداه ، ولكن من ناحية أخرى قد تكون

هذه المطاردة وهـذا الانتهار فى مقابلة تكـذيب القرشيين رحلة الإسراء والمعراج .

وتحول قـاسم من بائع بطـاطـا إلى راعى غنم ، وكان بين الأغنـام التى يرعاها نعجة لسيـده فى حى الجرابيع تدعى « قمر » وهى السيدة الـوحيـدة التى تملك مـالا فى هـذا الحى الفقير . وقـالت لـه مـرة : إن نعجتها تسمن وتمتلىء بفضل رعـايته الحسنة لها . ثم مـالت نفسها إليه فأرسلت خـادمتها إليه تعـرض عليه الزواج من قمـر ، واستغرب عمه وزوج عمه هذه الفكرة لثراء قمر وفقر قاسم .

الرمزية هنا قريبة جدا .. فالسيدة خديجة أستأجرت محمدا ﷺ ـ ليرعى تجارتها الـذاهبـة إلى الشام فـربحت ربحـا كثيرا وأعجبت هى بأمانتـه فمالت إلى الزواج منه ، ونمـو النعجة هو ربح التجـارة ، وقد أرسلت فعلا إلى النبى تطلب الزواج .

كـان لقاسم صـديقان هما حسن ابن عمـه ، وصـادق الـذى ليس قريبا لـه ولكنه يقاربه فى سنه ، وقـد رافقاه ناشئا وعـاوناه بعد ذلك مجاهدا .. ويبـدو أن المؤلف يرمـز إلى الصديق ابى بكـر وعلى بن أبى طالب وحوادث القصة الآتية بعد تؤكد هذا.

ويأتى بعد ذلك حادث رمزيته بعيدة ولكنها محكمة .

سرقت حـافظة النقود من رجـل كان قد عمل فى البيـت الكبير ونال اجـرا كبيرا فأخـــذ يصيح ويقـــول : سرق اللص نقـــودى، وقـــال الفتوات :

نفتش الاحياء ونبـدأ بحى جبل ، لكن فتوة حى جبـل لم يقبل هذه التهمـة . إذن نبدأ بحى رفـاعة فلـم يقبل فتوتـه أيضـا .. وثـار الجدل واللجـاج بين الفتـوات حتى اوشكت أن تقـوم معـركـة تـذهب فيهـا الرؤوس . ولكن قاسما تقدم بـاقتراح ، وهو أن تطفأ جميع الانوار كى يلقى السـارق الحافظة ، ثم تضـاء ثـانيا فيجـد الناس الحافظـة ولا

يعرف السارق وتنجو الاحياء كلهـا من شرور المعركة . وراقت الفكرة لـديهم ، ووجـدت حافظـة النقـود وأخـذ الناس فى الثنـاء على قـاسم وأعجبوا بحسن رأيه

هذا رمز لموقف رسول الله ﷺ يوم أن اختلفت القبائل القرشية على وضع الحجـر الاسود فى مكـانه من الكعبـة ، ثم لما جاء رسـوا الله ﷺ وضع عبـاءته ووضع عليها الحجـر واشتركت القبائل فى رفـع الحجر باشتراكهم فى تنـاول اطراف العبـاءة ، وقد سر الناس جـدا وأثنوا على هذا الرأى.

وفى هـذا الموقف اسرف المؤلـف فى جعل قـاسم ورفـاقــه وعمـه يبالغـون فى الشراب والسكر وكـان أحرى أن يجعلهـم أطهارا أبـرياء يترفعون عن الشرب والسفاهات .

عويس ابن عم « قمر » هو ورقة بن نـوفل الذى كان مرجع السيدة خديجة فى كثير من المشكلات .

وعن بداية الوحى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـ صور المؤلف بطله قاسما وهو عنـد الصخرة وحده خـاليا مع نفســه غارقا فى أفكـاره آسفا على أبنـاء الحى المحـرومين ، واذا شخص طـويل فـارع الطـول لم يتبين وجهه جيـدا ، وقال لـه : « أنا قنـديل خـادم الجبلاوى ، وارتـاب فيه قـاسم فقال قنـديل له : أتبعنى حتى ادخل البيت الكبير ، وتبعـه حتى أتى سور البيت فإذا سلم عـال جدا ـــ وليس فى الحارة سلم يرتفع إلى السور ، ورقى قنديل على السلم حتى غاب .

قال قنديل لقاسم : إن الجد الكبير بخير ، وإنه يعلم كل شـىء ، وأن المقيم فى البيت الكبير يستطيع ان يطلع على كل كبيرة وصغيرة مما يقع فى الحارة ولذلك ارسل بقمر إلى قاسم وقـال له : لعله اختارك لحكمتك يـوم السرقـة ولأمـانتك فى بيتك ، وهـو يبلغك بأن جميع أولاد الحارة أحفاده على السواء وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة ، وان الفتونة

شر يجب أن يذهب .. قال قاسم : ولماذا يبلغنى ذلك ؟ ـ فأجاب قنديل : لكى تحققه بنفسك.

هذه الصورة اذن رمز لما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعمله اذ حبب إليه الخلاء ، وجاءه جبريل عليه السلام بأول آية قرآنية فرجع بها يرجف فؤاده ، وقنديل هو جبريل ـ عليه السلام ـ وصعوده على السلم العالى هو رقيه إلى السماء فى ليلة الإسراء .

وعندما أعلن رسول الله ـ ﷺ ـ رسالته صدقه قليلون منهم الصديق أبو بكر وعلى وكان صبيا ، وقال ورقة : إنه الناموس الذى أنزله الله على موسى وعيسى ، وآمنت به زوجة خديجة ، هؤلاء لم يعهدوا عليه كذبا فلم يستسيغوا أن يكذبوه . وعرض المؤلف هذه الصورة فى حوار بين زكريا عم قاسم ، وعويس كبير الحارة . قال زكريا : إنك أكبرنا مقاما وجاها فصارحنا برأيك . وقال عويس : أقول الحق إن « قاسم » رجل ولا كل الرجال ولكن حديثه ادار رأسى ، وقال صادق : أتحدى أى مخلوق أن يذكرنا بكذبة صدرت عنه ، فهو عندى مصدق .. وأقسم لكم على ذلك .. وقال حسن بحماس : وأنا كذلك ، وسيجدنى دائما إلى جانبه .

ولم يؤمن عويس برسالته ولا زكريا ، ولكن « حسن » أعلن إيمانه برسالته . وهذا الموقف معروف فى السيرة ، إذ وقف على صغره بين القريشيين وأعلن تصديقه محمدا ﷺ .

كان القرشيون جامدين على ما ورثوا من عادات آبائهم ، وكانت نظراتهم مادية بحتة ، يخافون على مكانتهم ويخافون على أموالهم وقد سواهم محمد بمواليهم وجعل للفقراء حقا فى مالهم ، ولم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ ينظر إلى شىء من الجاه أو المال ، وظن قومه أنه يريد الملك أو المال ، وقالوا : إن كنت تريد ملكا ملكناك وان كنت تريد مالا جمعناه لك ما يجعلك اكثر مالا .

وفى الروايــة لمحات من هــذا فى غير موقف ، من ذلك قــول عويس : اننــا نعد الطــامح إلى الفتونــة مجنونــا فما بالك بمن يطمح إلى نظــارة الحارة جميعا ؟ وقال قاسـم : لست طامحا إلى شىء من هذا ، إنما أريد الخير الذى أراده جدنا ، وإن كان من العــرب من ينكر وجود الله . جاء فى الرواية:

« ابن هو جدنا ، فليخرج إلى الحارة ولــو محمولا على اعناق خدمه ، ثم فليحقق شروط وقفه كما يشاء .

وقال قاسـم : لن أقلع عما فى رأسى ولو ملكت الوقف كله .

وجاء مرة أخرى فى كلامه:

« إذا أذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كما نــريد فلم تحرم منه أمرأة سيدة كانت أو خادمة ، قال الواقف : إن الوقف للجميع ......»

وهذه إشارة إلى قانون المساواة الــذى جاء به الإسلام ، وقد كانت المرأة فى الجاهلية محرومة من الميراث ، ولكن الإســلام قرر لها حقها فى ذلك .

تآمر قاسم ورفــاقه وصمموا على تنفيذ ما اعتزمــوا عليه ، وقالوا : إن الــوقف للجميع ولا مكان بعــد للفتــوات ولا للناظــر ، وبسبب ذلك كثرت مســاءات الفتوات واعتداؤهم على قاسـم حتى نجــد واحدا منهم يفرغ على رأســه مقطفا من التراب ، ولعل ذلك إشارة إلى مــاكــان يفعله أبــو جهل وكبــار القــرشيين وإلقاء ســلا حيــوان على النبى ﷺ وهــو يصلى .

استقر رأى الناظر والفتوات على قتل قاسم ، وفى هذا الوقت الحرج مــاتت ، قمر وهــذا ناظــر إلى موت السيــدة خديجة ، ولم يكن لقــاسـم وصحبه بد من الهرب ، وسبقه عــدد من الأتباع الضعفاء ، ثم تسلل فى ظلام الليل فلحق بهم فــوجد مكانــا آمنا ، واستقبله الصبية بــالأغانى والأناشيد ، واستقر فى مكان وراء الجبل بعيدا عن أحيائهم .

أبدع المؤلف تصوير مساءات القرشيين وموت السيدة خديجة ، وأحداث الهجرة ، وكما كان فى على بن بى طالب عون كبير فى افلات النبى من إيذاء قريش كا ن لحسن — ابن عم قاسم ـ عون كبير فى إفلات قاسم ، وكان لصادق يد طولى كذلك ، وقد أرسل إليه ابنته بدريه للمساعدة أيضاً ، وبدرية تمثل السيدة عائشة ، وقد تزوجها قاسم أيضاً.

وفى الحديث عن مواقف الفتوات وتذمرهم من رأى قاسم ، لم يفت المؤلف أن يشير إشارة أو اشارات عابرة من حصار بنى هاشم فى الشعب ، ولكن هذه مرت خاطفة فى صورة حبس قاسم وأصحابه ومنعهم من الخروج من بيوتهم « مضت أيام وأسابيع وأشهر وقاسم لا يفارق داره » . كذلك لم تفته الإشارة إلى تعذيب أصحابه المستضعفين فى مكة ، وقد كانوا يسامون أشق أنواع الهوان ـ جاءت الإشارة لهذا فى صورة شخص اسمه شعبان وقد كان فى طريقه إلى بيت قاسم ، ولكن اعترضه الفتوة « سوارس » وهو فتوة حى الجرابيع فاشتبكا فى عراك انتهى بقتل شعبان .

وسوارس هذا قد يكون صورة لأبى جهل أو ابى لهب أو غيرهما من أمثال أمية بن خلف ، وهؤلاء الاثرياء الأقوياء بمكة ، وقد عذبوا المستضعفين طويلا ، منهم من مات ومنهم من فر من مكة خفية ، وكانوا يراقبون المهاجرين ويمنعونهم من الهرب ، وقد صور المؤلف هذه الصورة ورددها كثيرا .

وتصرف المؤلف فى حادث الهجرة فصور عددا من الفتوات يرصدونه ، ولكنه تمكن من الهرب قبل أن يدخلوا بيته ولما دخلوا وجدوه خاليا ، وفر قاسم وحسن تحت جناح الظلام ، ثم انضم إليهما صادق وآخرون وركبوا عربة يجرها جواد وأفلتوا .

ويوم هجرة رسول الله ﷺ — كان أربعون من فتيان قريش قد

استعدوا لقتله ، ولكنه افلت ليلا ، وتحت ستار الظلام ذهب هو وأبو بكر إلى الغار ثم ركبا ليلا وذهبا قبل أن يدركهما أعداؤهما .

ولإلباس الموقف ثوبا شعبيا جعلهما المؤلف يفران على عربة يجرها جواد . ودخل الأعداء البيت فلم يجدوا به احدا ، تماما كما دخل الشبان بيت رسول الله ﷺ ليلة هجرته فلم يجدوه. وتصرف المؤلف هنا أنه جعل « حسن » يفر مع قاسم ، ولم يشأ أن يورد الحادث حرفيا .

وبعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة قامت بينه وبين مشركى مكة حروبا كان أولها غزوة بدر ، وفيها قتل الملأ من قريش وهم أكابرهم ، وقتل ابو جهل الذى كان شديد الشكيمة على المسلمين ، وساد الحزن مكة بعد هذه الموقعة ، وتربص القوم لموقعة تالية ، وهكذا توالت الغزوات حتى كان فتح مكة وساد الإسلام .

والمؤلف يصور هذه المعارك على أنها معارك بالنبابيت اختلطت فيها الأصوات وشاركت النساء الرجال واستعملت الحجارة ، ولكن قتل الفتوة « لهيطة » وقد تكون هذه الشخصية رمزا لأبى جهل ، فإنه قتل يوم بدر ، ولم يأخذ الأعداء الثائرون جثة «لهيطة» كما لم يأخذ القرشيون جثة أبى جهل بل كان بين أصحاب القليب وكانوا عددا معروفين ، وجاء فى الرواية قول قاسم : تقدموا هذه جثة فتوتكم ، وورائى جثث رجالكم الآخرين ... »

وفى غزوة أحد جرح رسول الله ﷺ - وفى الرواية قال صادق لقاسم : «إن الدم يسيل من أسنانك وذقنك » هذا لأن رسول الله ﷺ ضرب بحجر من ابن قمئه . فأصاب رباعيته ووقع على الأرض . وعن حزن المكيين والدهشة التى أصابتهم بعد أن قتل صناديدهم وكبراؤهم يوم بدر جاء فى الرواية :

« لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل ، رجع الرجال صامتين

ذاهلين ذابلين غاضين الأبصار كأنما شدت جفونهم إلى اديم الأرض ، ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة ، وأن الربوع ترتج باللطم والعويل ، وانتشر الخبر فى الحارات والأزقة وباتت سمعة الحارة الرهيبة أحدوثة تلوكها ألسنة التشفى ... »

وحقا كانت عاقبة وقعة بدر ذات مثار للدهشة من رجال العرب الآخرين ، فضلا عما حدث بين أبناء مكة .

وانتقل المؤلف سريعا إلى غزوة الفتح فتح مكة ، وفيها أخذ المشركون على غرة ولم يسعهم إلا الإستسلام ، عدا محاولة فاشلة قادها صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ولكنها لم تستطع الثبات وفر صفوان وفر عكرمه ولحقت القوم السيوف المسلمة ضربا ولا تسمع إلا دمدمة ، وظن القوم أن المسلمين سيفتكون بهم جزاء ما قدموا لهم من مساءات ، ولكن رسول الله ﷺ ـ قال : إذ هبوا فأنتم الطلقاء ، وكان خالد بن الوليد هو الذى شتت الجماعة التى قادها صفوان وعكرمة ، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكن راضيا عن هذه الحرب . وقال : اللهم إنى أبرأ اليك مما يفعل خالد ، وأعلن بين الناس المساواة والعدل ، ففرحوا واطمانوا .

ونقتطف من الرواية هذه العبارات :

« التفت اناس .. رأوا « قاسم » أمام البيت الكبير» .

« ضج المكان بصيحات التحذير وتتابعت الأحداث فى سرعة خاطفة أمسكت الأيدى عن الضرب كأنما شلت» .

« وصاح قاسم بأعلى صوته : لا نريد أذى لأحد ، لا غالب ولا مغلوب ، أبناء حارة واحدة . وجد واحد ، والوقف للجميع ..»

وأشار المؤلف أيضا إلى وقعة الخندق التى فر منها صفوان وعكرمة فوصف فتوة الحى ينقض على قاسم ورجاله ، وفتوة الحى هنا هو « جلطة » ، « وانقض عليه حسن وصادق وهو مشتبك مع

قاسم ، فضرب صادق نبوته وهـوى حسن بنبوته على رأسه .. واندفع يجرى كـالثور الـذبيح .. انتهت المعـركـة . سكتت أصوات النبـابيت وصرخات الرجال . وقف المنتصرون وهم يلهثـون ويمسحون الدماء عن الـوجوه والرؤوس والمعـاصم وخاطـب صادق « قاسـم » قائلا : انتصرت ، نصرك الله ، ان جدّنا لا يخطىء فى اختياره » .

« وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة غير منازع » .

« ومضت اربعون يوما فى هـدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس وأطمأنت القلوب الكبيرة وقـال : هنا يقيم الجبـلاوى ، جدنـا جميعا ، ولا تمييـز فى الانتسـاب إليـه بين حى وحى ، أو فـرد وفـرد ، أو رجل وامرأة» .

« تهللت الوجوه فى دهشـة وبشر وبخاصة وجوه الـذين توقعوا أن يسمعوا مقالة رجل ملك وانتصر . »

وفى هذا اشـارة الى وقفة رسول الله ـ ﷺ ـ عند باب الكعبة وقـوله للنـاس : اذهبوا فأنتم الطلقـاء . وإلى إعـلان كلمة التـوحيد وشعـائر الاسلام .

« وتبادل الناس النظرات كأنهم فى حلم » .

« فى ذلك اليوم تعـزى قوم عن مـوتاهم ، وآخـرون عن هزيمتهم ، ونظر الجميع الى الغـد كأنما ينظرون الى بزوغ البـدر فى ليلة من ليالى الربيع .. »

« ولم تنعم حـارتنا قبلـه بمثل مـا نعمت به فى أيـامــه من الوحـدة والألفة والسعادة » .

تحدثت الرواية بعد ذلك عن حياة قـاسم وسلوكياته . وكلها صور من حياة النبى الكريم .

تحدثت عن المنافقين الذين كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام

وهم من اليهود الذين انفوا من اتباع نبى أمى من العرب وهم شعب الله المختار . فجاء فيها : « أجل كان ثمت آحاد فى آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ، ويتهامسون فيما بينهم : « انكون من جبل ويحكمنا جربوع من الجرابيع ، ومثلهم وجد فى آل رفاعة ، بل لم يخل الجرابيع من نفر أخذتهم العزة والزهو .. »

وحقا لم يدخل العرب جميعا فى الاسلام يوم الفتح ، ولكن جاءت وفودهم الى المدينة بعد ذلك .. منهم من اذعن لكل تعاليم الاسلام ، ومنهم من اراد ان يشترط اعمالا خارجة عن الدين وطبعا لم يجب اليها .

وأوثر أن أنقل هذه العبارة كما جاءت فى الرواية :

« ورأى الجرابيع فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله قبله ولن يوجد مثله بعده ، جمع بين القوة والرقة والحكمة والبساطة ، والمهابة والمحبة ، والسيادة والتواضع والنظارة والامانة والى ذلك كله كان ظريفا بشوشا انيقا ، وعشيرا تطيب مودته» .

وأشارت الرواية ايضا الى ازواج النبى - ﷺ - وهو قد تزوج سودة بعد خديجة وقبل عائشة ، واكتمل فى عصمته تسع من النساء ، وتزوج من يهوديتين هما صفية بنت حيى ، وجويرية بنت الحارث ، وقد اسلمتا ، ولم يتزوج نصرانية ، ولكن المؤلف قال : « فعلى حبه لبدرية تزوج من حسناء من آل جبل واخرى من آل رفاعة . وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضا »

ولعله يقصد بهذا زينب بنت عمه التى كانت زوجا لزيد بن حارثة ، وهو لم يتعشقها وتزوج منها لغرض ذكره القرآن الكريم إذ قال : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا .. » والمؤلف جارى بعض المستشرقين ، وليست هذه أولى أخطائه .

وذهب يذكر تعليل هذا الزواج وما يقال فيه فقال :

« وقال انــاس فى ذلك : انه يبحث عـن شىء افتقده من فقـد زوجته الأولى قمر ، وقال عمه زكريا : انه يـريد ان يوثق اسبابه بأحياء الحارة جميعا » .

والمؤلف هنا ـ وهو دون ريب ــ يحاكى بها شخصية النبى الكريم محمد ــ ﷺ ـ يسىء اليه إذ يـردد أفكار الكتاب الغـربيين عنه ، وهم يتهمونه بأنه زير نساء وأسير شهوات . فجاء فى كلامه :

« لكن حارتنا لم تكن بحاجة الى تفسير او تعليل لما حدث ، بل الحق انها اذا كانت اعجبت به لأخـلاقه مرة فقد اعجبت به لحيـويته مرات ، وأن حب النسـوان فى حارتنـا مقـدرة يتيه بها الـرجـال ويزدهـون ، ومنزلة تعدل فى درجتها الفتونة فى زمانها أو تزيد »

وهذا كلام ما ينبغى ان يكتب فهو إهانة وعدم تفطن لحقيقة الأمر ، وكان ينبغى ان يـذكر أو يشير إلى ان الـلائى تزوجهن « قـاسم » بعد بدرية كن من الثيبات ، أو يشير إلى ما حـدث من تزوجه واحدة من آل جبل ، وأن زواجـه منهـا كـان بـركـة على ذويها ، وأن عـددا كبيرا من قومها انضم اليـه وأنس به . وذلك إشارة إلى ما حـدث من دخول عدد كبير من اليهـود فى الإســلام بسـبب زواج النبى ـ ﷺ ــ من صفيـة أو جويرية .

ولكنـه وصفه من قبل بـالصدق والأمـانة وإشـاعة المســاواة بين الناس ، ثم جاء فى ختام الفصل :

« ومهما يكن من أمر فإن حـارتنا لم تشعـر قبله بالسيـادة حقا ، وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون نـاظر يستغل ، أو فتوة يستذل ، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الإخاء والمودة والسلام »

فواضــح من هذه العبـارات أن السلام والاخـاء والمودة والمساواة التى نشرها الاسلام لم يكن لها نظير من قبل .

وفى موضع آخر جاء فى الرواية قول قاسم :

« آه لو تستقم الامـور فلا يبق لك يا حارتنـا الا الفناء ! غدا يمتلىء النـادى بالأعـوان الاقويـاء والصـادقين . غدا ، نتحـدى بهم الناظـر والفتوات وجميع العقبـات ، كيلا يبقى فى الحارة الا جـد رحيم واحفاد بـررة ، ويمحق الفقـر والقـذارة والتسـول والطغيـان ، وتختفى الحشرات والذباب والنبابيت .. وتسود الطمانينة »

ويبدو فى هـذا التصوير مبـادىء الاسلام الساميـة من حب العدل والمساواة وكراهية الطغيان والظلم .

وطـاب للمؤلف ان يصـور زفة زواج على الطـريقة الشعبيـة ، وأن يصور حيـاة قاسم بعد زواجـه صورة شخص يتمتع بـا لمال وأوقات الفراغ ، ثم كـان من دماثة اخلاقـه ولين جانبه ان احبه العمـلاء الذين يستأجرون امـلاكا من قمر ، وكـان الناس حتى عـويس ابن عم قمر يظنون انه سيتخذ من هذا المال وسيلـة للبذخ والمتع الآثمة ، لكنه كان ينشد سعـادة الناس جميعا ولم يشأ أن يكـون فتوة ولا صـاحب قوة على الآخرين ، وكـان يقول : « العبرة بالقـوة التى تصنع الخير ، كقوة جبل وقوة رفاعة لاكقوة البلطجية والمجرمين »

وهكذا كـان رسول الله ـ ﷺ ـ ينشـد مـا جاء بـه النبيون من قبـله ، والرواية ذكـرت فقـط « جبـل » الذى يحـاكى شخصـية « موسى » ورفاعة الذى يحاكى شخصية عيسى .

وجاء ايضا فى الرواية :

« ما اعطفه على أولاد حارته الـذين يحـلمون بالسعـادة عبثا لمـاذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله ؟ » .

« ولعل هذا التسـاؤل حير يوما جبل ، كما حير يـوما آخر رفـاعة ، كان فى وسعهما ان ينعما بـالراحة ويخلدا الى السكينـة والسلام ، فما سر هذا العذاب الذى يطاردنا ؟ »

ونجد صورة اخرى لالتفاف المستضعفين حول النبي محمد - ﷺ - وإعداد انفسهم للنضال فى سبيل عقيدتهم . وجاء فى الرواية :

« وها هو حوش بيته يستحيل ناديا لتقوية الابدان وتطهير الارواح وهو مثلهم يرفع الاثقال ويتعلم التحطيب . وصادق امتلأت عضلات ذراعية . أما حسن فيالـه من مارد عملاق ، والآخرون ما ابهر حماستهم .. أجل إنهم قلة ولكنهم لطموحهم اذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم »

وكان قاسم يقول : « لماذا يكذبنى آل جبل ورفاعة . ومنهم من قابله الجبلاوى أو حادثه . لماذا يكذبوننى وهم اولى الناس بتصديقى وتأييدى ؟ »

وبعد الانتصار العظيم الذى يصور فتح مكة ، ودهشة الناس للتسامح الذى لم يكن احد يتوقعه .

جاء فى الرواية :

« فى ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم وآخرون عن هزيمتهم ، ونظر الجميع الى الغد المأمول كأنما ينظرون الى بزوغ البدر فى ليلة من ليالى الربيع » « ووزع قاسم الريع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والانشاء ، أجل كاد نصيب الفرد ضئيلا ، ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق كل حد .. »

وهذا تصوير لتوزيع الغنائم بعد الاحتفاظ بجزء منها هو الخمس لبيت المال . وحقا بعد فتح مكة سادت مبادىء الاسلام وانقطعت مظالم الجاهلية ، وغمرت الناس سعادة لم يكونوا يحلمون بها ، ولكن حياة رسول الله - ﷺ - لم تطل بعد ذلك ، فانتقل إلى الرفيق الأعلى بعد عامين تقريبا ، وخلفه الصديق أبو بكر ، بينما كان أنصار على يرون أنه الأحق بالخلافة ، ثم ما لبثت الخلافة ان تحولت ملكا عضوضا ، ثم جاء خلفاء لم يرعوا واجب القوانين الاسلامية ، وربما ظهرت

بعض التقاليد الجاهلية من عصبيات القبائل وانتصار بعضها لبعض أو عداء بعضها لبعض .

وجـاء فى الروايــة :

« المتأمل لحال حـارتنا لا يصــدق ما تقـول الربـاب فى القهوات فى جبل وفى رفـاعة وفى قـاسم .. أين قـاسم والحارة الـواحدة والـوقف المبذول لخير الجميع ، وماذا جاء بهذا النـاظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين ! ستسمع بين الحسرات والضحكات أن صـادق خلف قاسم على النظارة فسار سيرته ، وان قومـا رأوا أن حسن أحق منه بالنظارة لقرابته من قاسم . لأنه الرجل الذى قتل الفتوات وانهم حرضوا حسن على رفع نبوته الذى لا يقاوم فأبى أن يعـود بالحارة إلى عهد الفتونة ، لكن الحارة كـانت قد انقسمـت على نفسها ، ومضى أنـاس فى آل جبل وآل رفعة يجاهرون بما كانوا يضمـرون . ولما رحل صادق عن الدنيا اسفرت الـرغبات المكبـوتة عن وجهها الشـائه . ونظراتها العـدوانية ، واستيقظت النبابيت بعد رقاد .

وهـذا كله يصـور ما ذكـرنا ، ولكن هـذا الخروج على القانـون لم يحدث بعـد الصديق مبـاشرة ، فهناك العهـد الراشـدى ، عهد يمتـاز بسيـادة القانـون الاسـلامى ، قانـون العـدالـة والمساواة والـرفق بالضعـاف والفقراء وقد كان الامـام على طامحا الى الخلافة بعـد وفاة رسول الله - ﷺ - وتباطأ فى بيعة أبى بكر ، لكنه لم يشأ أن يشق عصا الطاعـة وان يقسم الدولـة وهذا ما يفهم ايضـا من جملة : « حـرضوا حسن على رفع نبـوته الـذى لا يقاوم فأبى ان يعـود بالحارة الى عهـد الفتونة »

لكن بعـد هـؤلاء ، سفـر العـداء بين الأمـويين والعلـويين ، ثم بين الامويين والعباسيين ، واشتدت الكـراهية وحب الانتقام ومن ذلك قتل زيد بن الحسن بن على فى عهـد هشام وصلبـه مدة طويلـة ، فلما جاء

العباسيـون نبشوا قبـور الامويين ، وعـادت الحياة الى مثل مـا كانت عليه فى الجاهلية .

ثم ظهرت الزندقة ، وتجاهر اليهود بطرق شتى وبوسائل مختلفة لكيـد الاسلام ، وكـذلك فعل النصـارى . وقـالت الروايـة : « ومضى أناس فى آل جبل وآل رفاعة يجاهرون بما كانوا يضمرون » ..

على أى حـال ظلت الحياة تعـانى ظلم الأقـوياء حتى جـاء العصر الحديث وظهـر انكار الديـن وانكار وجـود الله ، وهذا ما عنـاه الفصل الذى خصص لعرفة .

عـــرفـة

هذا هــو الفصل الأخير من الرواية ، وبـدأه المؤلف بأن الحارة بعد ذهـاب قاسم عـادت إلى مـا كانت عليـه من قبل ، ظهـر فيها الفتـوات الجبابرة المتسلطون ، وفرضوا على الناس الاتـاوات ، وعاد ناظر جديد على الوقف من نسـل النـاظر السابق ، وقد بدأ ســيرته أولا باعتدال أو بشيء من الاعتـدال ، ثم ما لت بـه اطماعـه وأغراه جبروتـه فطغى وتجبر واتخذ من الفتـوات اعوانـا له أو أسلحـة يشهرهـا على رؤوس الضعفـاء ، ولم يبق شيء من آثـار الاصـلاح الـذى أقـامـه قـاسم ، والشعراء فى المقـاهى يتحدثون عن آمال ادهم فى المســاواة وعمن تلاه من جبل ورفاعـة وقاسم ، ولكنها مجرد اقـوال للتسلية . ولا يستطيع واحد من الضعفاء أن يطالب بإعـادة شيء منها ، حتى اننا نجد رجلا شيخا اخنت عليه الايام ، يشرب مـرة حتى يسكر فيهذى بما لا يعرف ولا يدرى ، فوقف وهو تحت خمار ما يشرب « يطالب بأعلى صوته أن تعود الحياة الى ما كانت عليـه ايام قاسم » لكن « الفتوة الكبير » انهال عليه ضربا وصفعا ولم يتركه حتى اغمى عليه » .

هذا لون من تسلط الفتوات . امـا عن فقر الحارة وسوء حال الناس

فنجد صورة منها فى هذا الرجل المسكين نفسه ، يضع امامه فى الشارع قفصا يغطيه بثوب قديم رث ، ويجعله « الطبلية » التى يضع عليها أكواب الشاى والقهوة ، ويبيع الكوبة بملليمين «نكلة» وتساعده ابنة له فى ريعان شبابها ولكن سمات الفاقة بادية عليها من ملابسها ومن عين لها موجعة متورمة لا تجد ثمن الدواء الذى يصحها .

وصورة أخرى مما آلت إليه الحارة يصوره فى قوله :

« ان الناظر يستأثر بنصف الريع — ريع الوقف - ويوزع النصف الآخر على الفتوات الاربعة الذين استأثروا به من دون المستحقين ولم يقفوا عند ذلك بل جاوزوه بكل وقاحة الى فرض الأتاوات على اتباعهم المساكين ، وتعطلت حركة الانشاء حتى توقف البناء فى بيوت لم يشيد منها الا نصفها وربعها » .

وهذا تصوير لحال الناس حين يذهب المصلحون وتندثر مبادئهم ولا يبقى منها الا ذكريات ، ثم هو تصوير ايضا لعاقبة الظلم وآثاره السيئة على الناس ، ولعل المؤلف يشير الى حركة التأميم وتخفيض ايجارات البيوت فى العهد الناصرى ، وإذ كان من آثارها أن توقف البناء ، وظل متوقفا من بعد ، والرواية نشرت فى جريدة الاهرام فى اوائل الستينات . وهى ايام التأميم ، وقد نشأ عن هذه الحركة انقلاب لموازين الحياة وانتكست الحضارة . ويقول المؤلف فى وصف حال الناس :

« أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه فى الزمان الأسود بلا كرامة ولا سيادة تنهكهم الفاقة ، وتتهددهم النبابيت ، وتنهال عليهم الصفعات ، وانتشرت القذارة والذباب والقمل ، وكثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات ، ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم الا اسماء واغانى ينشدها شعراء المقاهى المسطولون والناس هنا وهناك تفلت من شفاههم كلمات اليأس والاستسلام» .

فى هذا الجو ظهر عرفة .

وعرفة من ابنـاء الحى القدامى تغرّب زمنا طويـلا مع أمه ثم عاد الى الحارة وأمه كانت غجـرية ضاربة ودع ، وهـو مجهول الأب ـ ابن حرام ـ وفد على الحارة ومعـه قزم تابع له ، وكان الفقـر باديا عليه لا يكسوه الا جلبـاب واحد وقد شـد على وسطه حزامـا ليحمل فى وسطه اشياء له . وحذاؤه بـال متهتك وليس على رأسه غطاء . وشعره اشعث غزير . واستغـربه الناس أولا ، ثم عرفهـم بأمه فتذكروهـا اذ كان هو طفلا يتبعهـا ، واخيرا أرشدوه الى بدروم فى حى رفـاعة كـانت تسكنه امراة ماتت محروقـة فتشاءم الناس منه وخافـوه ، ولكنه قبله وسكن فيه ، وسرعان ما انتشر نبأ عودته .

كان عـرفه سـاحرا وصـاحب مخدرات ، ومحترفا للطب وصنـاعة الدواء ووجد البـدروم مناسبا وأوسع مما كـان يتوقع ، وخصص منه حجرة للمقابـلات وأخرى للنوم وجعل الثالثة معملا يعـد فيه أشياء ه التى يريدها ، وصورت الرواية هذه الحجرة والادوات التى يعمل بها :

« كان عـرفة وحنش يعمـلان بهمة فى حجرة البـدروم الخلفية على ضـوء مصباح غـازى مثبت فى الجدار لم تكن الحجرة تصلح للحيـاة العاديـة ، فجعل عرفـة منها مقرا لعملـه ، وبدت على أرضهـا وأركانها مجمـوعـات من أوراق الأحجبـة والأتربـة والجير ونبـاتـات وتـوابل وحيوانـات وحشرات مجففة كـالفيران والضفادع والعقـارب ، واكوام من قطع الزجاج وقوارير وميـاه فى صفائح وسوائل غريبة ذات رائحة نفـاذة وقتخم وكانـون وقـد ركبت على الجدران رفوف حمّلت بأنـواع شتى من الأوعية والآنية والأكياس ..

هذه هى الحجرة أو هذا هو المعمل . وهذه الادوات عجيبة ، منها ما هو من أعمال السحرة الدجالين ، ومنهـا ما يناسب العلماء الباحثين ، لكن عـرفـة كـان متفائلا بها يـرجـو من ورائهـا المال الكثير ويقـول

لصاحبه « حنش » : «لا تيأس فالنقود تكثر بالصبر . ويقول لصاحبه : لا تخرجنى عن افكارى ، اى مغفل ممن يحسبون انفسهم معلمين فى هذه الحارة لا يستطيع ان يدرك خطورة الاشياء التى تصنع فى هذه الحجرة المعتمة القذرة ذات الروائح الغريبة . إن أعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة . المجانين لا يدركون قيمة عرفة الحقيقية ، لعلهم يعرفونها يوما ما » .

هذا عرفة الفقير الأفاق ، دخل الحياة من باب ضيق ولكنه نال منها ما يريد ، عامل الناس معاملة عجيبة ، استولى على الفتوة بقرص أو حبة من المخدر ، فجاء الآخرون يسألون عنها ويطلبون مثلها ، وحجرته تجمع بين السحر والبحوث العلمية . ماذا يريد به المؤلف أو أى شخصية يحكيها هذا الافاق النصاب .

لم يورد المؤلف له اشياء تتعلق بأعمال السحرة أو إحضار الجان ، ويبدو انه اراد به نزعة علمية حديثة تعتمد على الطاقات الكامنة فى المخلوقات ، وهى بحوث لا تعتمد على جاه ولا نسب ، ولهذا جعل عرفة مجهول الاب ، وما سماه المؤلف سحرا يعنى الأعمال العلمية التى ظهرت فى العصر الحديث من مثل البارود والكهرباء والمفرقعات وآلات الدمار التى لم تكن معروفة قبل ذلك ، ويبدو فى عرفة هذا الاعتزاز بعمله والاستهانة بالمعتقدات الدينية فهو يقول للفتاة بائعة الشاى : «اين جدنا ؟ ابوك يتحدث عن قاسم ، وقاسم حدث عن جدنا . هكذا نسمع ولكن لا نرى الا قدرى وسعد الله وعجاج والسنطورى ويوسف (الفتوات) نحن فى حاجة الى قوة لتخلصنا من العذاب فماذا تجدى الذكريات ؟! »

ويقول عن أعماله : السحر شىء عجيب حقا ، لا حد لقوته ولا يدرى أحد أين يقف ، وقد تبدو النبابيت لمن يملكه لعب أطفال .

وهذا ما يتكرر على السنة الناس من ان العلم لا يعرف الكلمة

الأخيرة فى أى بـاب من أبوابـه ، ولا يـدرى احد اين ينتهى ، ثم نجـده يطب لعين الفتاة المسكينة بـائعة الشاى بشـىء من معلومـاته وموادة فتصحو وتصح .

وهو مفتون بحجرته وما يجرى فيها من الاعمال :

ولكنى املك الأعاجيب فى هذه الحجـرة ، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين .

ثم نجد مما لديه زجاجـة محكمة الاغلاق يريد تجربتها فى الفضاء بعيدا عن اعين الناس حتى لا يفتضح امره ، هى اذن قنبلة أو ما يقوم مقام القنبلة .

انـه العلم الحديث يطغى على عـواطف الديـانـات ، ويجيب عرفـه زوجه اذ تقـول : ربك قادر على كـل شـىء بقولـه : كذلك السحـر فهو قـادر على كل شـىء وعلى اشيـاء لا تحصـى ، وقـد يتمكن يـومـا من القضاء على الفتـوات انفسهم ، وتشييد المبانـى وتوفير الرزق لكـافة أولاد حارتنا ، السحر أثره لا يزول .

وتقول عنه زوجته :

«هو لا يبدو كبير الثقة بـالجبلاوى ولابما تحكى الرباب عن (جبل وعمران وقاسم) ومن المؤكد انه بـات يعطى السحر من جهده ووقته اضعاف اضعاف مـا يتطلبه الرزق ، واذا فكر جـاوز تفكيره شخصه واسرته الى مسائل عامة لا يعنى بها احد» .

وهـو يقـول ايضـا : اعمال الجبـلاوى فى الخلاء لا يفسرهـا الا السحر .

وهو ايضا لا يؤمن من بـالغيب « حجرتى الخلفية علمتنى ألا أومن بشىء إلا إذا رأيته بعينى وجربته بيدى .. »

وهذه هى لغة العلم الحديث .

قـد رأينا من قبل ان المؤلف رمـز لشجـرة المعرفـة التى نهى الله ـ تعـالى ـــ آدم ان يأكل منها بـوصيـة محفـوظة فى حجـرة الجبـلاوى الخاصة ، وعنـد ما حاول ادهم ان يطلـع عليها طرد من الجنـة ، وهنا يجعل عرفة مشوقا الى الاطلاع عليهـا ، فالرمزية اذن تعنى كلف العلم الحديث بمعرفة المجهول والاستزادة من المعرفة ، ولا يكتفى المولعون بـا لمعـرفـة ولا يقنعهم ان يعيشـوا عيشـة رغـدة هنيئـة ، فـالطعـام والحيـوانـات العجم يكفيهم هـذا ، أمـا ذوو العقـول والتفكير فـلا يرضون بهذه الحياة ويعنيهم اصـلاح الناس وكشف المجهول فى هذه الـدنيا . « كـان بـوسع جبل ان يبقى فى وظيفته عنـد النـاظر ، وكـان بوســع رفاعة ان يصير نجـار الحارة الأول ، وكان فى وسع قـاسم ان يهنأ بقمـر وامـلاكهـا وان يعيش عيشـة الاعيـان ، ولكنهم اختـاروا الطريق الاخر .. »

وقد تنـاسى المؤلف هنا تكليـف الجبلاوى إياهـم بما عملوا ، وفى هذا ايضـا تناسى الـوحى الى موســى وعيسى ومحمد .. هكـذا تقول الرباب وسوف اعرف حقيقة كل شىء .

ويقول صاحب عرفة :

« فى هـذا الخلاء كلّم (الجبلاوى) بنفســه جبل وأرسل خادمـة الى قاسم » .

كان عرفة يقف فى مكاننا (عند السور الخلفى بالبيت الكبير) عندما ترامى اليه صوت الجبلاوى .

وهذا تصوير تقريبى لتلقى هؤلاء الانبياء وحى الله دون ان يروه

والعلم الحديث شديـد الثقة بنفســه ، مستهين با لمشاعـر والاوامر الدينية ، وتبدو الاستهانة فى قول عرفه :

« وفى هذا المكان قتل رفـاعة . واغتصبت أمنا وضربت ، ولم يحرك جدنا ساكنا » . وانظر قول رفاعة :

« أنا عندى ما ليس عند احد ، ولا عند الجبلاوى نفسه ، عندى السحر وهو ما يستطيع ان يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين » .

« السحر لا نهاية له ليس لدىّ الآن منه الا بعض الادوية .. أما ما يمكن ان يوجد فلا يحيط به خيال » .

وهذا هو ما قلناه من قبل من ان السحر هو العلم الحديث الذى لا تعرف له نهاية والذى يستهين بمشاعر الدين .

تستمر الرواية فتذكر ان ناظر الوقف فى الحارة بعد قتل الفتوة الذى كان يستند اليه ويتقوى به - وكان قتله بسحر عرفة - استدنى عرفه منه وأسكنه فى البيت الذى كان به الفتوة ، واستراح عرفه الى نعيم الحياة فى هذا المنزل الجديد عليه ، وانغمس مع الناظر فى الوان الترف وفى الحفلات الساهرة الراقصة مع الفواتن العاريات ، وفى الوان الشراب والسكر والعربدة ، وانحرف هو ايضا وجرفه تيار الفساد فغوى وعشق حتى ان زوجته الفقيرة بنت بائع الشاى أنفت من العيش معه فتركته وذهبت الى بيت امرأة عجوز كانت تعرفها ، وآثرت عيشة الفاقة والمسكنة على هذه العيشة الملوثة وإن غمرها نعيم المتاع .

وناظر القصر رجل ماكر خبيث مازال يألف عرفه ويستدنيه حتى حصل من عنده على كمية من الزجاج السحرى ، واقام عليه حرسا يرقب حركاته ، وكان عرفه فى احاديثه مع الناظر يتحدث عن الوقف وعن المحرومين منه من اهل الحارة والناظر يضيق بهذا الكلام . وكل منهما بيت أمرا ، أما الناظر فكان يخشى عرفه وسحره وقرر التخلص منه مكتفيا بما حصل عليه من زجاجات السحر ، فهى تغنيه من الفتوات وحسبه ذلك .

واما عرفه فقد يئس من توزيع الوقف بالانصاف ، ورأى ان

الافضل له ان يهاجـر ، وكانت زوجته وتابعه «حنـش» يلحان عليه فى الهرب ، ولكنه كـان يرى ان عليه رسـالة لابد ان يتمهـا وهى انصاف ابنـاء الحارة ، ولكنـه رأى اخيرا ان يخرج منها ليعـد عـدتـه ويهيىء نفسه للعودة الى الحارة ليخلصها مما يريد ان يخلصها منه .

وفى إحدى الليـالى المظلمة جاءته خـادمة الجبلاوى ــ تلك العجوز السـوداء التى رآهـا ليلـة ان اقتحم القصر ــ جـاءت اليـه لتخبره ان الجبلاوى وهو يعـانى الاحتضار بين يديها امرهـا ان تبلغه أنه راض عنه ، قالت : قـال لى : « اذهبى الى عرفه السـاحـر وأبلغيه عنى ان جده مات وهو راض عنه »

واستغرب عرفه هذا النبأ لكن العجـوز اكدت له ذلك ، ففرح به كل الفرح وشـد ذلك من عزمـه على الهرب ، ولم يصدقه رفيقـه اول الامر وحسب ذلك من خيالات السكر ، ولكن ازاء التاكيدات الكثيرة الشديدة اذعن .

كان عرفة وصاحبـه وزوجه يودون الهرب ولكنهم يخشون عيون الناظـرين من حولهم ، وظل عـرفه وحنش رفيقـه مجدين فى العمل فى الحجرة التى خصصاها لذلك وفى العمل الذى جهزاه .

ورأى عرفه ان يدون اسرار سحره ورمـوزه فى كراسة ليرجعا اليها عندما تدعو الحال لذلك .

وأخيرا استحكمت فى ذهنـه فكـرة الفـرار فإنـه من الصعب والمستحيل ان يؤدى رسالـة فى هذا الجو ، عيون الناظـر تراقبه فى كل مكان : ولكن كيف الهرب فى مثل هذا الجو الرهيب ؟!!

تـربص هو ورفيقـه حتى القى الليل على الكون حجـابا كثيفـا من الظـلام القـاتم ، وتـوقع انه اذا خـرج فلن يـراه احـد ، وإذا رأوه فلن يضيروه بشىء لأنهم ألفوه ، وكان على نفسه من المسرفين . إن الناظر ماكر عميق التفكير وجـواسيسه يخبرونه بكل شىء . لقد حـدّث عرفه

من قبل أنــه يعــرف تسللــه إلى داخل البيت الكبير وقتل الخادم الــذى بسببه مات الجبلاوى كمدا ، كما أنه يعــرف أنه قاتل الفتوة الذى كان عينا ، وبدا للناظر والافلات منه حتى تحت ستار الظلام ليس بهين .

واحتال عرفــه جهده وخرج هو ورفيقه فى صمت تــام واتجها نحو بيت العجــوز التى هــربت عنــدها زوجتــه ولكنــه لم يكن مطمئنــا كل الاطمئنان . دخل وترك صاحبــه خارج البيت لينذره بخطر الحراس ـ حراس الناظر ـ اذا اتوا .

وصعــد الى زوجته فى غــرفة العجــوز المسكينة على السطح وأخــذ يعتذر اليها ويستحثها على الهرب معه ، ولكنــه فوجىء بإنذار صاحبه ونظــر فإذا الشــارع ملىء بــالحراس جــاءوا ليطــاردوه ثم ليردوه الى الناظــر وكانت معه كــراسته التى دون فيها اسرار سـحـره ، فرمى بها بسرعة فى « منور» البيــت حرصا عليها ان يأخــذها الحراس ويكشفوا أسراره .

لم يستطع الهرب من مطارديه الكثيرين فأمسكـوا به هو وزوجته وقيدوا أيديهما إلى ظهورهما واستقوهما إلى النــاظر . اما رفيقه حنش فقد أفلت : انهال الناظر عليهما ضربا وتأنيبــا ، ثم نادى رجاله ثم امر بوضع الزوجه فى شوال احكم فمه اغلاقا .

وقال عــرفه للنــاظر : ان صــاحبه لــديه أسرار السحــر ، وأنه عما قريب سينتقم منه ومن اعوانه ، وسخر النــاظر من هذا التهديد وقال : « عندى من القوارير ما يحمينا الى الابد »

ووضع عــرفه ـــ فى شوال ايضــا ، وذهب الحراس به وزوجتــه الى الخلاء فحفروا لهما حفرة القوهما فيها ، وهالوا عليهما التراب .

شاع الخبر فى الحارة ان عرفه قــد قتل ولكن لم يعرف الناس كيف قتل ، وإن كانت الاشاعة قد زادت بأن الناظر تخلص منه .

شمت فى عرفه الكثيرون وسبه الكثيرون وقال القائلون إنه اساءهم بقتله الجبلاوى واعطائه الناظر سلاحا فتاكا من السحر الذى عمله .

ظهر « حنش» بعد ذلك للمرأة العجوز وسألها عما ترك عرفه فقالت : انه رمى كراسة فى المنور ، وراح يبحث عنها فلم يجدها ، فذهب يسأل حاملى الزبالة اين القوا زبالة هذا المنور ، ثم ذهب الى مستوقد الصالحية يبحث بين الزبالات .

وارتاع الناظر واخذ يبحث عنه ووعد بمكافأة سخية لمن يرشد عنه ، وكان الحراس ذهبوا الى اكوام الزبالات ليقبضوا عليه فلم يجدوه هناك فقد اختفى اذن والكراسة معه .

وتناقل الناس هذا النبأ وقالوا : ان « حنش» سيعود مرة ثانية ليقتل الناظر ويعيد سيرة عرفة ، ولكراهتهم فى الناظر تواصوا أن يعاونوا « حنش» اذا عادوا ونمت العاطفة حتى كانوا يبكون عرفه ، وفاضت السنتهم بالثناء عليه ، وقالوا اضعناه ولم ننصره ، وقالوا كان رجل الحارة الاول والاخير حتى ولو كان هو قاتل الجبلاوى .. وقال بعضهم قد يعود « حنش» بسحر رفاعة .

ثم لوحظ اختفاء بعض الشبان تباعا وقيل فى تفسير اختفائهم انهم اهتدوا الى مكان خنش فانضموا اليه ، وأنه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود ، واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله ، فبثوا العيون فى الاركان ، وفتشوا المساكن والدكاكين .. حتى باتت الحارة فى جو قاتم من الخوف والحقد والارهاب ، لكن الناس تحملوا البغى فى جلد ولاذوا واستمسكوا بالأمل .. وقالوا لابد للظلم من آخر ، ولليل من نهار ولنرين فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب .

بهذا انتهت رواية « اولاد حارتنا » ـــ وهى فى جملتها ومختلف

مـواقفها تمثل المعـركـة الابـدية الـدائرة بين الخير والشر ، بين الظلم والعدالة . تصــور بغى الاقوياء على المستضعفين . الاقـويـاء يتمتعون ويلهون فى اسراف وبذخ ، والضعاف الفقراء يلهثون وراء لقمة العيش ووسائل الاعلام التى تتمثل فى اناشيد الرباب يعنيها قبل كل شىء ان تتملق الحكــام وتثنى على الاقــويــاء ، فـإذا أرادت اطـراب النـــاس وتسليتهم ذكـرتهم بأمجاد المصلحين السابقين ، وليست ذكـرياتهم وامجادهم الا خيالات واحاديث لهو على نحو مــا يتغنى شعراء الرباب فى الريف ببطولات بنى هلال .

ويلاحظ ان المؤلف جعل كل واحد من هـؤلاء الثلاثة يأتى والحارة تعج بصور من الفســاد والظلم والتعالى من الاقوياء ينــال الضعفاء ، وبسبب استبـداد الحكـام فى كل موقف ، وخـوف النـاس منهم يشيع النفـاق وتكثر المداهنـة والـرياء ، فـالنـاس يكرهــون نـاظر الـوقف ويكـرهــون الفتـوات ، ولكنهم يـداهنـونهم ، والشعـراء يتحـدثـون بمآثرهم ويبدأون حديثهم بالثناء على الناظر ثم على فتوته .

وهـذا مستساغ لأنــه حين يشتد الظلم يظهـر المصلحون والنـاس دائما يقولون : **اشتدى ازمة تنفرجى .**

ودعـاة الإصــــلاح دائما يعنيهم صــلاح أممهـم ولا ينظـرون الى مصــالحهم الخاصة بقـدر مـا يعملون لصــالح الآخـرين وهم دائما يعادون من الحكام ويختلف النــاس فى شأنهم بين مادح وقادح وتقدّر مبادئهم من قوم وتنكـر من آخرين ، وبعد ذهابهم تنـدثر مبادئهم او تحور ويختلف الاتباع فى مغزاها وتفسيرهــا ، ولكن بالمزيد من طغيان الظلم يتـذكر النــاس هؤلاء المصلحين ويبكون ايـامهم . وقـد حرص المؤلف على ابراز هذه الناحية فى حياة المصلحين الذين ذكرهم .

تعقيب

(١) روايةأولاد حارتنا نشرت فى جريدة الأهرام فى أوائل سنة ١٩٦٠ ، ثم أخرجت فى مجلد فصودرت ، صادرها الأزهر ، ويرى صاحب الرواية الأستاذ نجيب محفوظ : أن المباحث العامة هى التى قدمتها للأزهر وطلبت أن يصادرها ، هذا لأن الأزهريين ــ فيما يذكر ويرى الأستاذ نجيب محفوظ ــ لا يقرأون هذا اللون من الأدب القصصى ، وأذكر أننى حاورته فى هذا فأصر على ما يرى ، ومهما يكن من أمر مصادرتها فقد نشرت ، نشرتها إحدى صحف اليسار ، ومن قبل نشرها فى الصحف المصرية طبعت فى بيروت وتسربت إلى مصر وبيعت بثمن غال ، وقرأها من يعنيهم أن يقرأوها ، وشاعت بين الناس إلى حد غير قليل وهذا ما شجعنى على الكتابة عنها .

(٢) كتابتى عن هذه الرواية هى حل لرموزها ، ومقابلة بين ما جاء فيها وما جاء عن أحداثها فى كتب التاريخ والأديان ، ومما سبق نجد أن موضوع الرواية كلها يتركز على رسالات الأنبياء الكبار ، وهى فى عرض حوادثها تحتذى سيرهم وجهادهم ومواقفهم بين الناس وأمام الحكام ، وقد خفت صوت هذه الرسالات ونسى الناس أو

أعرضوا عن هـذه الدعوات أمام التقـدم العلمى الحديث حتى أعرضوا عن الله نفسـه ، وهذا مـا عبر عنه المؤلف بمـوت الجبلاوى ، ولم يمت العلم ويصبح أحـاديث وروايـات كما حـدث للـرسـالات ، بل بقى فى الكـراسـة التى تحوى أسرار السحر ورمـوزه ، وقـد حصل عليهـا .. «حنش» تـابع عرفـة ممـا جعل الناظـر فى رعب وتـوقع لسطوة عليـه وهجوم جديد ، وقد فسرت بعض الرموز فى الرواية كما بدت لى ، ويوم أن قـابلت الاستاذ نجيب وحـادثته فى شأن هـذه الروايـة لم أكن على تذكـر جيد لأحداثها ، فهى لم تكن عنـدى ، وكل ما كان لدى منهـا هو بقايا ممـا كنت أقرأه منها حين كانت تنشر فى جريـدة الأهرام ، وهناك أحداث كثيرة أضافهـا وليس لها نظير فى الكتب القديمة ، ولم تحضر فى حوارنـا ، ولكن بدا لى منها أنه يـريد تأكيد الصورة المصريـة بإدخال هذه الأحداث ، وهى أخلاق شعبية مصرية .

(٣) قلنـا من قبل أن الـروايـة صـودرت . فما الـذى دعـا إلى مصادرتها ؟ وما الذى أثار الغضبة منها ؟

أول شىء هو شخصية الجبلاوى ، فقـد خلع عليها المؤلف صفات الذات العليـة ، وهذا ظاهـر جدا من حـادث تولية أدهم نظـارة الوقف وأمر الآخرين بطاعته فأذعنوا وأطـاعوا عدا إدريس الذى يمثل موقف ابليس ، فهذا ما تقوله الآية الكـريمة : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكـان من الكـافرين » وهـذا الإبـاء مذكور فى غير سورة من القرآن .

وهو ظاهـر أيضا فى احتجاب الجبلاوى فى قصره ولا يـراه أحد ولا يكلم أحدا ، ثم نجد فى أثنـاء الرواية ما يؤيد هـذا التشبيه كل مظلوم ، وكل ضـائق من شىء يصيح .. يـا «جبـلاوى» ـ والمظلـومـون والضـائقـون عـادة يصيحـون « يارب » ـ ثم تقـول الـروايـة : إن الجبلاوى وهـو فى حجرته يعلـم كل شىء فى الحارة ، ونحن نقول : لا يعلم الغيب إلا الله ، كذلك نجـده يخاطب « جبل » و « رفـاعة » وهما لا

بريانــه ، أما قاسـم فظهر لــه وكلمه « قنديل » .. وهو يقــابل شـخصية جبريل . وجاء فى القرآن الكريم عن مــوسـى حين سار بأهله وآنس من جانب الطـور نارا فلما آتاهــا « نودى يا مــوسـى إنـى أنا ربك » ـــ « يا موسـى إنى أنــا الله رب العالمين » ـــ « إننى أنا الله لا إله إلا أنــا » ـ إلى آيــات أخرى مثل هــذه الآيــات ، والروايــة تــذكر أن « جبل » وهــو فى الظلام القاتم فى الصـحراء سمع هــذا الخطاب من الجبلاوى ولم يره ، كذلك رفــاعة سمـع نداء الجبــلاوى يحرضه على الجهاد وعلى الــدعوة للاصـلاح وإشــاعة الرحمة والاخاء ، وجاء فى القــرآن الكريم : « إذ قال الله يا عيسـى بن مريم اذكــر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس» ، «يا عيسـى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذى كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ... »

وهكــذا كما أوحى اللــه إلى أنبيــائه ولم يــروه سمـع هــؤلاء كــلام الجبلاوى ولم يروه .

وحين جــاء عهد العلم الحديث ـــ عهـد السحر فى الــروايــة ـ نجـد عبارات كثيرة ضد الجبلاوى كما نجد عنــد العلمانيين انكار الله : ماذا فعل لنا الجبــلاوى ، هل رآه أحد ، لم يره جبل ولم يره رفــاعة . وهكذا نجد الجبلاوى شخصية تلبس صفات الذات العلية .

(٤) قال الأسـتــاذ نجيب : إنه لا يتحدث عــن الله ـ تعــالى ـ ولا عن الكون ، وإنما يصف حارة شعبية ، بها رجل مقتدر له فى الحارة وقف وله نظار ، وقد جاء فى أول الرواية : إن الرجل كبر ويريد أحد أبنائه أن يتولى هذه النظارة !

هذا كلامه .

ولكن أى رجل يعمــر كــل هــذه السنين ! ! تــوالى على الحارة نظــار وفتوات ومصلحــو ن ، وهو حى لم يمت إلا بعد مئــات السـنين ، ثم هو

حتى بعد موته لم يره أحد ، دفن فى حديقة قصره ، من يا ترى تولى تجهيزه وغسله وتكفينه ؟ ! !

(٥) والمصلحون الذين ذكرتهم الرواية ، خلعت على كل واحد منهم صفات وأعمال النبى الذى يمثله ، فجبل قام بأعمال كأعمال موسى ، ورفاعة لبس صفات المسيح ، كان نجارا واعتكف فى الخلاء وفوق الجبل ودعا إلى ما دعا إليه المسيح عليه السلام ــ من الرحمة والإخاء ، وقاسم مثل سيرة النبى محمد ــ ﷺ ــ يتيم رعى الغنم وتزوج من سيدة شريفة ثرية ، وحارب ، وتزوج عددا من النسوة ثم نجد الرواية تذكر خلافة الصديق واختلاف الصحابة ودعوة بعضهم لتولية على ونصرته ... الخ

أتتسع الحارة لهذا كله ؟ وتأتى المصادفة بكل هذا التوافق ؟

(٦) من ناحية أخرى نجد صفات وأحداثا لا تناسب هذه الشخصيات .فالجبلاوى يخرج من القصر أحيانا ، وقد استدعى «همام» وخرج ليأتى به إلى القصر .

هل هذا رمز للرضا عنه ؟ إن الرضا جاء صريحا فلا حاجة إلى الرمز ، كذلك هؤلاء الأنبياء جاء لكل واحد منهم صفات وأعمال تخالف المأثور عنه ، فموسى ــ كما رأينا ـ لم يلق فى اليم ، ولم يقابل السحرة أو يتحداهم .... ورفاعة له أب نجار ، وقاسم شريب سكير ، بل ثلاثتهم يشربون .

ترى هل تغير هذه الصفات شيئا من شخصيات اتسمت بكل ما لهم من أعمال وصفات ، حتى أمانة قاسم واعطاؤه النساء حقوقهن وإكبار الناس صفاته النبيلة .

هذه الصفات البارزة من أعمال هؤلاء الأنبياء لا يخفيها ما جاء لهم من صفات شعبية .

(٧) هذه انطباعاتنا عن هـذه الرواية الكبيرة الضـخمة ، وهـى مليئة بالصور والمناظر الشعبيـة ، ولا مغزى لها إلا أنها تصور شعبا فقيرا يمتهن المهن الحقيرة ، وجبابـرة أقويـاء يستهينون به ويسخـرونه لما يـريدون وينهبـون أملاكـه وأمـواله ، والشعب يصبـو لإصلاحـات المصلحين ولكنها لا تـدوم ولا تلبث إلا قليلا ، وتحت ضغط المعـادين للمصلحين وجبروتهم يضطر الناس إلى شتم المصلحين الـذين جاءوا لإنقاذهم .

هذه الصورة ليست مجرد صورة شعبيـة ولكنها تمثل حال مصر فى مختلف العصور ، بل وحال الناس فى أمكنة وظروف شتى مختلفة .

(٨) وسلاح العلم الحديث يقوده غـرور لا يحد ، إنه يخيل إليه أنه يعمل المستحيل ، أو يستطيع أن يعمله ، ويتمثل هـذا فى الرواية فى أمل عرفة أنه سيصل يومـا إلى إحياء الموتى ، ولكن الله سبحانه راض عن العلم وعن العلماء ، ويشير إلى هـذا خـادمة الجبـلاوى العجـوز التى جاءت إلى عرفة لتخبره أن الجبلاوى مات وهو راض عنه .

(٩) تـرى صادفت التـأويلات التى سبقت مـراد الكـاتب ، أم هى مجرد تخمينـات ، وددت لـو أن لدى طـاقـة من الجهـد ومتسعـا من الوقت لأقابل الأستاذ نجيب وأعـرض عليه هذه الملاحظات ، وأذكر أن الحسن بن هـانىء الشاعـر المشهور بكتيبـه « أبو نواس » مـر بمعلم يشرح لتلاميذه قول ابى نواس :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر .

فقال المعلم : إن الشاعـر أراد أن يمتع حواسه كلها بـالخمر ، وهو قد ذاقها وشمها ورآها فأراد أن يمتع سمعـه بذكر اسمها ، فتبسم أبو نواس وقال : ما خطر هذا لى ببال . ! !

ولعلى لا أكون قـولت الكاتب مـا لم يقل وأردت له ما لم يخطـر له ببال .

(١٠) وأخيرا يأتى السؤال الواضح القريب : هل يجوز إذا غيرنا أسماء بعض الأشخاص والأماكن أن نعرض سيرهم وأعمالهم حسبما نرى ؟ هل يجوز إذا سمينا الأنبياء الكبار بجبل ورفاعة وقاسم وسمينا الله باسم الجبلاوى أن نعرضهم هذا العرض ، وهو كما رأينا من قبل لا يخلو من سخرية أو إهانة .

للإجابة على هذا السؤال أقدم سؤالا آخر ، ماذا يحدث لو سميت ملكة انجلترا بغير اسمها ، ووصفتها ووصفت زواج ابنها ولى العهد أو أباها بصفات لا تناسبهم ؟ أيرضى الانجليز عن هذا أم يغضبون ؟ وهل تقبل الملكة اليزابيث الثانية أن أسميها موهانا أو باميلا أو مارجريت أو غير ذلك من الأسماء ثم أعرض صور تقلدها العرش بعد أبيها وزيارتها فرنسا حين كان بها عمها وزيارتها له ، وشربهما وسكرهما أو عملهما عملا لا يناسب كرامة ملكة انجلترا ؟ وماذا يحدث لو أننا فعلنا ذلك لأى ملك أو رئيس جمهورية أو حتى محافظ إقليم ؟

هذا ما يقوله الذين طلبوا مصادرة الرواية .

ويعرض الآن فيلم المهاجر ، وقصته تمثل شخصية يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وقد احتج عليها الكثيرون ، ولها الآن قضية تنظرها محكمة رسمية ، ولا ندرى ماذا سيكون قرارها .

ويقال إن رواية « أولاد حارتنا » بصدد أن تكون مسرحية تعرض فى التليفزيون ، وحول هذا أكد نجيب محفوظ أنه لم يصرح بذلك .

وقد نشرت جريدة الأهرام فى يوم ٥/١١/١٩٩٤ حديثا عن الرواية وعن مؤلفها ، وجاء فيه أنه مازال على رأيه الذى أعلنه عقب فوزه بجائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، وهو عدم النشر إلا بعد موافقة «الأزهر» أو عدم اعتراضه وهو ملتزم مع « الأهرام » على تولى نشر الرواية .

وفى الصفحة نفسها خبر يقول : إن المثقفين المصريين أصدروا بيانا وقعــة أكثـر من ٥٠٠ من الكتـــاب والمثقفين والمفكـرين والفنـــانين والاعلاميين ، ويقع فى ١٧ صفحـة ، وقد استنكـروا فيه نشر الــرواية دون إذن منـه بذلك وضـد رغبته ، لأن هـذا النشر عدوان صـــارخ على حق المؤلف .. ورحب الأديب الكبير ببيـــان المثقفين المصريين ، وأبـدى استياءه من نشر الرواية ، وأكد أن النشر تم بدون موافقة منه .

وخلاصة ذلك كله أنه لم يـأذن بنشر الرواية وأن هذا النشر يتوقف على الموافقة الأزهر أو عدم اعتراضه .


٣
ابن حارتنا
نجيب
محفوظ!
حكاية
أولاد حارتنا
بقلم:
د. سمير سرحان

تلك المدية التى غرسها أحد المجرمين فى رقبة نجيب محفوظ فأسال منه الدماء الغزيرة إنما غرسها فى قلب الوطن . ويشاء الله العلى القدير أن يجرح هذا القلب الكبير ولا يتوقف .. وإنما يعود لينبض بالحياة ، ويعود صاحبه ليطلق الضحكات رغم المفاجأة ورغم الألم .. وكأن هذا الحدث الجلل قد عبر أبلغ تعبير عن استمرارية هذا الوطن بحضارته العريقة وبوعيه المتفتح نحو العقلانية والتقدم والحرية ، بالرغم من أفاعى الظلام التى تنفث سمها خسيسا حقيرا لتلدغه لدغة الخيانة حتى تدمر كل ما هو جميل وحقيقى فى حياتنا .. ثم تطلق سيقانها للريح !

ليس نجيب **محفوظ مجرد** روائى كبير استطاع فى خلال عمله الدءوب على مدى خمسين عاما أن يرسم بريشة إبداعه العظيم خريطة هائلة للمجتمع المصرى المعاصر فى مراحل تطوره الاجتماعى المختلفة ، وبنماذجه البشرية الفريدة ، وبالحارة المصرية التى تمثل عنده مصغرا للعالم ، وبالصراعات والتناقضات الفكرية والنفسية والسياسية والوجودية التى اكتنفت مسيرة هذا المجتمع على مدى جيلين ، فاستحق بذلك أن يتربع على عرش الرواية العربية ، وأن يخرج بها من خلال خصوصيتها الثقافية ومحليتها الشديدة إلى

نطـاق العالميـة ، فيحصل بها للأدب العـربى ـــ لا لنفسه فقط ـــ على جـائزة نـوبل ، ويضع هـذا الأدب على خـريطـة الإسهـام الإنســانى والإبداع الراقى المتكامل بعد أن كانت الـرواية العربية ـ فى نظر بعض المستشرقين ـ مجرد وثائق اجتماعية تزود البـاحث الغربى بمعلومات عن العادات والتقاليد الغربية للمجتمع الشرقى !

لا .. وليس نجيب محفوظ مجرد مبدع استطاع أن ينقل فن الرواية العـربية مـن مرحلـة المقـامات أو الحكـايـة أو الحدوتـة أو الثرثـرة الرومانسية ، إلى مرحلة البناء الروائى المحكم والمتكامل الأركان سواء فى مجال الـرواية الاجتماعيـة التى ترصـد حـركة المجتمع من خـلال مصغر المكـان (وغالبا مـا يكون هـذا المكان حارة أو حيـا شعبيا مثل الحسين أو الجماليـة) ، أو فى مجال الروايـة التى يختلط فيها الـواقع بالرمز ويصبح البطل فيها هو العالم الداخلى للشخصية بكل نوازعها الداخلية المتنـاقضة ومحاولتها الاتحاد بعناصر الكـون الأكثر شمولا وشفافية من الواقع المعاش .

وليس نجيب محفوظ مجرد قيمـة عليـا من قيم العمل الـدءوب المخلص من أجل أن يـرسى قـواعـد فن من الفنون الجميلـة هـو فن الرواية ، ومن أجل أن يرسخ جذور هذا الفن القادم من الغرب فى تربة الأدب العربى الـذى يعتبر الشعر هو عموده الأول ، وهـو الأدب الذى لم يعرف فن السرد الفنى إلا فى مقامات الحريرى وبعدها فى محاولات المويلحى وعمله الرائد «**عيسى بن هشام**» أو رواية «**زينب**» لمحمد حسين هيكل ، **ثم عـودة الروح** لتـوفيق الحكيم .. وكلها أعمال قـد تقترب من فن الرواية ولكنها لا تمنحه التحقق الكامل .

وليس نجيب محفوظ بشموخه الفنى واتصال إبداعه فى الزمان ، وتواجـده المتوهـج على الساحة الأدبيـة على مدى نصـف قرن مجرد أديب كبير يستحق بجـدارة لقب أبى الـروايـة العـربيـة ، ومـؤسس

الروايـة العربية الحديثـة الذى خرج من معطفـه عشرات ، بل مئات ، الروائيين من الأجيـال التى تلت ذلك فصنعوا بـه ومعه مجد الـرواية العربية المعاصرة ، تماما كما خرج الأدب الروسـى الحديث من معطف جوجول كما يقولون .

وليس نجيب محفوظ فقط هو ذلك الـرائد الذى سـار بالـرواية الواقعية إلى آفاق أبعد وأشمل فى تطوره الفنى على مدى سنوات إبداعه الطويل ، فهو قـد خرج من الإطار الاجتماعي الواقعى بعـد «الثلاثية» ليجـوب آفـاقـا أرحب على مستـوى التجـريب فى الشكـل الـروائى والتجريب فى الموضـوع الروائى فى الوقت ذاتـه .. فمزج الواقع بالرمز واتخذ من الخلفية الاجتماعية إطارا رمزيـا للوصول إلى المعانى الكلية التى لا تقتصر على واقع اجتماعى بعينـه أو ظـروف زمانيـة بعينهـا ، فكأنه أراد بذلك أن يسـبح فى المطـلق متخـذا الواقع كنقطة انطـلاق لا ارتكاز ، فيصبح الواقع فى روايـاته الرمزية كـالقاعدة التى ينفصل عنها الصـاروخ ليسبح بعد ذلك فى الفضـاء الرحب ، ويـلامس المعانى الكبرى التى تلهينـا حيـاة الأرض عـن إدراكهـا بسبب صراع الحيـاة اليومى .

لا وليس نجيب محفوظ مجرد شجرة وارفـة أظلت بظلها الرحيب وبحضورهـا المتوهج بستان الأدب العـربى على مدى سنوات طـويلة من عمـر الـزمان المصرى والعـربى وستظل كـذلك مـا بقيت الكلمـة أساسا لوعى الإنسان وتقدمه وصراعه مع الحياة أو احتفاله لها .. ولا هو مجرد مـوقف مع الحرية والتقـدم والتفكير العلمى والتنويـر وكل القيم العقلانية والفكرية التى أرست دعائم تقدم المجتمع المصرى منذ عصر محمـد على حتى الآن ، وهـى قيم تـرفض العـودة بمكتسبـات الثقافة المصرية إلى الوراء ليعود المجتمع إلى عصور الظلام المملوكية ، لا عصور الصحوة الحضـارية ، بعد أن يتم إغراقـه فى متاهات الجهل

والخرافة والشكلانية والروح القبلية وتكفير الآخرين . فالموقف الفكرى الثابت لنجيب محفوظ ـ مهما تنوعت آراؤه السياسية أحيانا ـ هو مع التقدم والعقلانية والحرية وحق الخلاف فى الرأى مع التمسك بمنظومة المثل العليا التى تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع معا على رأسها الدين .

وهذا الموقف يتناقض تماما مع سوء الفهم الذى صاحب روايته العظيمة «أولاد حارتنا» منذ البداية حين رفع أحد الشيوخ تقريرا إلى السلطات العليا يحرض هذه السلطات على مصادرة الرواية بدعوى خروجها عن الدين عام ١٩٧٧ . ومنذ ذلك التاريخ والرواية تقف فى قفص الاتهام دون أن يقرأها أحد .. ودون أن يسعى أحد إلى تحرى الحقيقة .. ومن المؤكد فعلا ان أحدا لم يقرأ الرواية لا قراءة متعجلة ولا قراءة متأنية سوى صفوة الصفوة من النقاد أو محبى أدب نجيب محفوظ .. وبما اننا بلد يهوى تناقل الإشاعات دون التحرى عن مصدرها أو حقيقتها ، فقد سرت الإشاعة مسرى النار فى الهشيم ان «أولاد حارتنا» رواية معادية للدين ، حتى وصل الأمر إلى ذلك الصبى الغرير ذى العشرين ربيعا الذى انحنى ذات يوم على رقبة نجيب محفوظ فى الساعة الخامسة من ذلك اليوم الأسود ليطعنه طعنة نجلاء ويطعن معه قلب الوطن دون أن يقرأ حرفا من «أولاد حارتنا» ودون أن يعرف حتى إن كانت رواية أو مسرحية أو قصيدة شعر !

ويشاء الله ان هذه الطعنة الغادرة تكسب الكاتب العظيم قوة وتهبه فى الحياة استمرارا وقدرة ، ويشاء الله ان الصرخة المكتومة التى أطلقها الكاتب وهو فى قمة الألم فى وجه الإرهاب تصبح صرخة مدوية يتردد صداها فى جنبات الوطن .. وإذا الكل يستيقظ إلى حقيقة ما يجرى لهذا الوطن .. وإلى حقيقة «أولاد حارتنا» !

وها أنت وحدك

يا أيها الشـاهق الفـذ تخترق الظلمة الـدامسة عـاريا ، ناحلا ،

لا تنوء بما حملت كتفاك

ولا تشتكي لعصاك

من الطعنات الخسيسة والأوجه الفظـة العابسة بل تجود على الطرقات بما عتـق الدهر والفكر من طيبـات دماك تدق بها فوق أبوابنا المغلقات

لنصحو فى الساعة الخامسة !

(أحمد عبدالمعطى حجازى)

رواية أولاد حـارتنا « أمثـولة رمـزية» Parable وهذا هـو أحد الأسبـاب الـرئيسية التى تسببـت فى سوء فهمهـا .. والحكم عليهـا لا بمقاييس الفن وإنما بمقـاييس أخرى غير فنية هى مقـاييس المقال أو الرأى الفلسفى أو حتى السياسى بمقيـاس التكفير الدينى .. والرواية ببساطـة شديـدة ـ كما هى الحال فى عـالم نجيب محفـوظ الروائى ـ تتخذ من الواقع وسيلـة لتصوير ما وراء الـواقع .. أى منظومة النظم والقـوانين العليـا التى تحكم حيـاة الإنسـان وأهمهـا الخير والشر .. والصراع بينهما .

كما تتخذ أيضا شأنها شأن عدد كبير من رواياته الاجتماعية ـ من الحارة المصريـة مصغـرا للعـالم .. وإذا كـانت الحارة هى التجسيـد الـواقعى للعالم كما يـراه نجيب محفـوظ ، فإن دلالاتها تتسع لتشمل الكون كله .. وهو الكون الذى لا يقتصر إدراكه على التفاصيل الواقعية للحيـاة اليـومية وإنما يمتـد ليشتمل على منظـومـة القيم والمدركـات الميتافيزيقية التى تحكم مصير الإنسان فى هذا العالم .

وإذا كانت الحارة هي مصغر للعالم .. وإذا كانت مسيرة البشرية فى هذا العالم توازى ــ روائيا ــ تاريخ هذه الحارة وصراعاتها وتقلباتها ، فإن الدين فى « **أولاد حارتنا** » هو الحقيقة الأولى والجوهرية التى تحكم مسيرة الحضارة الانسانية كما تحكم الحياة داخل هذه الحارة الرمزية .. وفيها يستحضر نجيب محفوظ الأشكال الأساسية للدين أى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام وهى جميعا عنده ترمز إلى فكرة الدين السماوى خصوصا دون الحاجة إلى الخوض فى تفاصيل كل دين على حدة أو مقارنة دين بآخر ، فالذى يهمه هنا هو أن يرد فكرة الصراع بين الخير والشر إلى منبعها الأساسى فى جوهر حياة البشرية وهو القيم الدينية التى لا غنى عنها للوصول إلى حالة من الخير الخالص ـ هو الأصل فى التكوين البشرى بل وربما الأصل فى حالة الكون ذاته قبل خطيئة آدم ـ فى مقابل الشر الخالص الذى يتمثل فى الرمز الابليسى الذى ينطوى على عصيان الرب ، ومنذ أن عصى ابليس أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام ، أصبح اسمه قرينا بالشر وأصبح العالم ذاته مكانا يختلط فيه الخير بالشر ، وهكذا أيضا الحال مع أولاد حارتنا عند نجيب محفوظ .

فالحياة فى هذه الحارة الرمزية تنطوى على جدلية الخير والشر التى تحكم الحياة ذاتها منذ أن رفض ابليس السجود لآدم وعصى أمر ربه ، فكف الكون عن أن يكون خيرا خالصا ، وانتفت عنه حالة الطهر الخالص المصاحب لفكرة الفردوس .. وما يعنى نجيب محفوظ فى الأساس فى معالجته الروائية لحالة الكون فى **أولاد حارتنا** هو بيان الخير والشر وإرجاع الصراع بينهما إلى أصوله الحضارية بدءا من الحالة الفطرية الأولى التى كان عليها الانسان عند بدء الخليقة وانتهاء بإنجازات العلم الحديث عبورا بدعوات الرسل والأنبياء .

هذا هو المعنى الرمزى والجوهرى فى معالجة نجيب محفوظ للحياة فى « أولاد حارتنا » أما الحارة نفسها فهى تموج كما تموج

الحياة ذاتها بـالنماذج الانسانيـة التى تتصـارع وتتعـايش من خلال فكرة « واقعيـة » هى محاولة إعادة توزيع ريع « الـوقف » الموجود فى الحـارة على سكـانها بالعـدل والقسطـــاس ، ذلك الوقـف الذى كـان « الجبلاوى » المتسلط قد حجبه عن الجميع .

ويقع الخطأ الأساسى فى التأويل المعادى للـرواية ـ والذى أدى إلى مأساة محاولة ذبح المؤلف على قارعة الطريق فى الساعة الخامسة ـ فى تفسير شخصيـة الجبـلاوى نفســه .. فهـواة هـذا التفسير الخاطىء يخلعون على الجبلاوى بعض صفات الألوهية .. لكن القارىء المتأمل للروايـة يستبعد تماما اقتراب شخصية الجبـلاوى من دائرة التأليه . فهو دائما يقسم بالله .. أى أنه ذات بشريـة يعود دائما فى حاله الأزمة أو القرار إلى القسم بـالذات العليـا .. والتأويل المعادى للـرواية والتى يتهمهـا بأنها ضـد الدين ، يـــوازى عمدا بين شخصـيات « جبـل » و «رفـاعـة» و « قاســم » وبين رسل الله فى الأديـان الثـلاثـة .. ولكن المتأمل للـــروايـة وللتركيب النفسى والشخصـى لهذه الشخصيـات الثـلاث يـــدرك أن كـلا منهـم يلعب دور المصلح الاجتماعى دون أن يجاوز حد البشرية أو يتطـاول على التشبه بالأنبياء .. فجبـل يرمز إلى القوة التى بغيرهـا لا يسود العدل ، ورفـاعة يرمز إلى فضيلـة الرحمة ويروج لها بين أبنـاء الحارة ، وبين القوة والرحمة يتردد القسم بـالله الواحـد الأحد وطلب العفو منه ، أمـا قاسم فيأتى قويـا ومتسامحا فى نفس الوقت مستعينـا بالله صاحب النصر .. وعنـدما ينتصر يخاطبه صاحبـه صادق قـائلا : « نصرك الله » ، ولما خلفـه على الوقـف جعله قـاسم للجميع وأعاد تـرتيب الأوضـــاع فى الحارة « بفضل الله » فـالله وحده هـو من ينعم ويرحـم ، فالثلاثـة هم من المصلحين الاجتماعيين ولكل منهم نظـرته إلى كيفيـة تحقيق العـدل فى الحارة ، وثلاثتهم بـلا استثنـــاء يتميـــزون بـــالضعـف البشرى فهم يبيعـــون ويشترون وينغمسون أحيـانا فى تفـاهات الحيـاة وملذاتها وهـم يرتـادون بؤر

المخدرات بين المنـازل القذرة حيث بائعات الهوى والأسر المطحـونة ، فالخير والشر فيهم والقوة والضعف فيهـم ، غير أنهم تميزوا عن بقية «أولاد حارتنا» بهذه الشهوة العارمة للاصلاح الاجتماعى .

إن « أولاد حارتنـا » هم خليط من النماذج الانسانيـة يهدف نجيب محفـوظ من تقـديمهم ــ فى نهايـة الأمـر ــ إلى تأكيـد قيم العـدالـة الاجتماعية والمحبـة والكرامـة والتقدم وكلها من القيـم التى حرصت على تأكيدها جميع الأديان السماوية .

هذا هو الموقف الحقيقى لنجيب محفوظ ابن حارتنا .

وهذا هـو العالم الحقيقـى لهذه الحارة الكونيـة .. عالم يـؤكد على ضرورة التمسك بالقيم العليا للدين ..

وأن يتوسل بالعقل والعلم للوصل إلى اليقين !

د . سـمير سرحـان


٣
أولاد حارتنا
بين
خصوصيتها المصرية
وعموميتها الانسانية
بقلم:
محمود أمين العالم

قــد يكون مــن من التعسف أن نقول عن أدب نجيـب محفوظ إنــه يتنامى منذ بـدايته حتى اليوم فى إطار نسق واحـد لا يتغير ، سواء من حيث جمالياته التعبيرية أو دلالتــه الاجتماعية والفلسفية . فلا شك أن هناك تنـويعات وتغييرات واختــلافات وتطويـرات لا تتمثل فحسب فى المراحل المختلفة المتجـددة لإبداعه الـروائى ، بل أحيانـا داخل المرحلة الواحدة . على أن هــذا لا ينفى وجود بعض الثوابت الأســاسية فى هذه المراحل جميعا ، التى تسهم ـــ مع عناصر وسمات أخرى ـــ فى إضفاء وحدة نسقيــة عامة على أدب نجيب محفـوظ . فهناك نسق عــام لأدبه كله ، ولكنــه نسق يتدفق بأمــواج متتابعة متجـددة متنوعــة متراوحة مـختلفـة من الـرؤى والأبعاد والأعماق والتــوجيهـات والمواقف شأن الحياة الإنسانية نفسـها .

ولهذا أكاد أقــول : إنه لم يكن أمــرا عابــرا أو من قبيل المصـــادفة ـ وإن تكن للمصـادفة دلالة موضوعية ضرورية فى أدب نجيب محفوظ ـ أن يبـدأ نشاطـه الثقافى والإبـداعى بترجمة كتاب انجليـزى عن مصر القديمة الفرعـونية ، وهو مايزال طالبا فى المدرســة الثانوية ، ثم يكتب بعد ذلك ثلاث روايات مستلهمة من التاريخ المصرى القديم هى «عبث الأقــدار» و «رادوبيس» و«كفاح طيبــة» يـؤرخ بها لوطنــه ـ على حــد تعبيره ـــ «فى صـيغة روائيــة» . بل أكاد أقــول إن هذه البـداية المبكـرة

للتعرف على تاريخ مصر ، وصياغته روائيا ، هى سمة أساسية وثابت جوهـرى فى أدب نجيب محفوظ كله منـذ البدايـة حتى اليوم . ولست أقصد بتاريخ مصر هنـا ، تاريخها السياسى ، وإن يكن هـذا التاريخ السياسى بعدا من أبعاد عـالم نجيب محفوظ الروائى . ولست أقصد به اختيار أحـداث مصرية ، أو شخصيات مصرية ، فى هـذه الرواية أو تلك ، كما يفعل العـديـد من الـروائيين المصريين ، وإنما أقصـد الهمّ المصرى الشامل ، الكيان المصرى ، الهوية المصرية ، الحقيقة المصرية ، المزاج المصرى ، الـروح المصريـة ، المسألـة المصـــرية ، الطـــريق المصــرى لـكى تـكـون مصـر وتتحقق مصريتها ، ولكى تصير مصر وتتحرك وتتقـدم . ولهذا فهو فى مشروعـه الإبداعى المتنـامى لا يؤرخ لمصر تأريخا سياسيا ، بل يـؤرخ تاريخا عميقا ، يجمع بين الاتجاهات السيـاسيـة والأوضـــاع والمواقف الاجتماعيـة ، والشعبيـة والأذواق الأدبيـة والفنية ، والقيـم الأخلاقيـة والملامح الموضـوعيـة والذاتيـة المختلفة الفرديـة منها والمجتمعية ، فى تفاعلها وتنويعـاتها ، فى ثوابتها ومتغيراتها ، فى تنـاقضاتها وتـوافقـاتها . وهو لا يعبر عن هـذا تعبيرا روائيا وصفيا ، بل تعبيرا صراعيا من نـاحية ، وتعبيرا تقييميا توجيهيا من ناحية أخـرى ، وإن لم يفصح عن هذا الجانب التقييمى التوجيهى بشكل جهير فى بنيته الروائية الفنيـة . بهذا الوعى الشامل كانت مصر منذ البـداية وماتزال حتى اليـوم ، هى همه الأول والأكبر والأساسى ؛ وبفضل هذا الهم كتب وأبدع وكان إبداعــه شاهدا مسئولا عن حقيقتنا المصرية خاصــة وعن العصر كله عامة ، وبسبب هـذا الإبداع المخلص المتفانى الجسور النبيل كاد أن يكون شهيدا .

على أنه مهما اتسعت وتعمقت وتنوعت أبعـاد مصريته الروائية ، أو روائيته المصرية ، فلقـد كان هناك دائما ومايـزال محور أساسـى تكاد تدور حوله أغلب تساؤلاته فى تجسيـدها الروائى الفنى ، هذا المحور ـ فى تقديـرى ـ هـو محور السلطة ببعـديها : البعد السيـاسـى العملى ، والبعد الإيديولوجى والقيمى ، أو بتعبير آخر : طبيعة السلطة الحاكمة

المتحكمة فى مصر ، وطبيعة الفلسفة والقيم السائدة فى إطار هذه السلطة ، وما يواجهها من صراعات وفلسفات وقيم أخرى .

وفى رواياته الثلاث الأولى التى أشرنا إليها من قبل يكاد يركز على الطبيعة الاستبدادية للحكم ، فضلا عن إرادة التغيير والتحرير .

ففى «عبث الأقدار» تتحول السلطة من سلطة بالوراثة إلى سلطة بالعمل ، وفى «رادوبيس» يثور الكهنة على سلطة الفرعون الخارج على القيم ، وفى «كفاح طيبة» يصل أحمُس إلى السلطة بمكتشفاته وانتصاراته . وتكاد هذه الروايات الثلاث رغم مادتها التى تنتسب إلى تاريخ مصرى قديم ، أن تشير إشارات رمزية واضحة إلى واقع السلطة فى مصر أثناء الحكم الملكى المستبد والفاسد ، فضلا عن الاحتلال البريطانى المسيطر فى الثلاثينيات والأربعينيات .

على أن نجيب محفوظ سرعان ما ينتقل من هذه المرحلة الروائية الأولى التى تستوحى تاريخ مصر القديمة ، إلى المجتمع المصرى الراهن نفسه فى أكثر أحيائه الشعبية التى هى كما يقول فى مدخل رواية «أولاد حارتنا» : أصل مصر أم الدنيا . وتبدأ هذه المرحلة برواية «القاهرة الجديدة» وتنتهى برواية «السكرية» أى بالجزء الثالث والأخير من «الثلاثية» مرورا برواية «خان الخليلى» فرواية «زقاق المدق» ، فرواية «السراب» ، فرواية «بداية ونهاية» وأخيرا الثلاثية بأجزائها «بين القصرين» و «قصر الشوق» و «السكرية» .

وقد لا تبرز قضية السلطة بمعناها السياسى أو المعنوى والقيمى فى هذه الروايات بشكل مباشر ، إلا أننا نستشعر قضية السلطة فى تجلياتها المختلفة : الأبوية ، والاجتماعية ، والثقافية والأخلاقية والجمالية فضلا عن السياسية . ففى مجمل هذه الروايات تبرز الصراعات وتحتدم بين هذه الأشكال المتنوعة من التجليات السلطوية ، فى ملامحها الفردية والنفسية والفئوية والطبقية والجماعية والسلوكية والقيمية والإيديولوجية المختلفة . ولعل «الثلاثية» أن

تكون الملحمة الشاملة التى تجمع كل العناصر والسمات الأساسية فى الروايات السـابقة عليها منذ «القاهرة الجديـدة» وتعبر عن رؤية فنية بالغـة الرفعـة والعمق والحيويـة لما كان يحتـدم به تـاريخ مصر من صراعات وتناقضات ونضالات وتوجيهات وتطلعات سياسية ووطنية واجتماعية وثقـافية منـذ بدايـات القرن العشرين حتـى عام ١٩٤٤ . فأحـداث «بين القصرين» تقع بين عام ١٩١٧ وعـام ١٩١٩ ، و«قصر الشوق» بين عـام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٧ و «السكريـة» بين عام ١٩٣٥ وعام ١٩٤٤ .

وفى هذا الجزء الثـالث والأخير من «الثـلاثية» ، نستشعـر الغليان الفكـرى والمخاض الاجتماعـى بحثا عن مخرج ، عن طـريق يتجـاوز محنة الاحتلال البريطانى الذى كان لايزال فوق أرض مصر وحياتها ، فضلا عن الملكية المستبدة الفاسدة والتخلف الاجتماعى السائد .

لقد انتهـى نجيب محفوظ من كتـابة «ثـلاثيته» مع انفجـار ثورة يوليـو ١٩٥٢ ، رغم أن «الثلاثيـة» تقف بأحـداثها عنـد عام ١٩٤٤ . وكـان نجيب محفـوظ يستعـد لمواصلـة استكمال صرحـه الـروائى المصرى مستلهما استلهامـا إبداعيا للـواقع المصرى فى مرحلـة ما قبل قيام هـذه الثورة . وكـانت فى جعبته جملـة من المشروعـات المقترحة . وجـاءت ثـورة يـوليـو فغيرت الخريطـة السيـاسيـة والاجتماعيـة والإيديولوجية لتلك المرحلة .

لقد قـامت سلطة جديـدة ، وبدأت مـلامح غامضة لم تتحـدد بعد لخريطـة جديـدة . وكان مـن الطبيعى أن يتساءل نجيب محفـوظ مع غيره من المثقفين والمفكرين عـامة : هل هذه الثـورة هى مجرد انقلاب علوى ـــ كما أسماها كتـاب صدر فى ذلك الحين ـــ لن يغير من طبيعة السلطة ، أو بنيـة المجتمع ؟ أم هى ثورة حقيقيـة ستعيد بنـاء السلطة والمجتمع بنـاء جديـدا فى مختلف جوانبـه ؟ ولم تكن هذه التسـاؤلات مجرد تساؤلات نظرية ، بل راحت تبحـث عن إجاباتها فى أرض الواقع

السياسى والاجتماعى .

ولهذا كان من الطبيعى أن يتوقف نجيب محفوظ المشحون بالهم المصرى ، لا عن مواصلة استكمال مشروعه السابق فحسب ، بل أن يتوقف تماما عن الكتابة . بل لعله قال آنذاك : لم يعد عندى ما يقال . بل قال : إن أدب المرحلة الجديدة بعد قيام هذه الثورة هو أدب الطبقة العاملة. بل قال إنه قد انتهى أدبيا .

وطوال سبع سنوات ، أى من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٩ ، قامت ثورة يوليو بممارسة سلطتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى حققت العديد من الأحلام الوطنية والتقدمية التى كان يحلم بها نجيب محفوظ ، والتى تضمنت - بشكل أو بآخر - أعماله الروائية السابقة بعض ملامحها وبشارتها . إلا أن ثورة يوليو ، فى تحقيقها لهذه الأحلام ، لم تتصادم فقط مع أعدائها التقليديين من قوى استعمارية وصهيونية ورجعية عربية فى الخارج ، أو قوى استغلالية شبه إقطاعية أو رأسمالية فى الداخل ، وإنما تصادمت كذلك مع قوى سياسية واجتماعية وإيديولوجية ، كانت قد تحالفت معها فى البداية ، بل شاركت معها فى قيام الثورة ، مثل حركة الإخوان المسلمين ، وفصيل من فصائل الحركة الشيوعية المصرية . وكان من نتيجة هذا ، تصفية البنية السياسية الليبرالية التى كانت سائدة قبل الثورة ، وإلغاء الأحزاب وفرض نظام التنظيم السياسى الواحد ، وفضلا عن هذا ، فقد امتلأت السجون والمعتقلات فى بداية عام ١٩٥٩ بالشيوعيين المصريين إلى جانب من كانوا بها من قبل ، فضلا عن أعضاء حركة الإخوان المسلمين الذين كانوا فى السجون كذلك منذ محاولة الاعتداء على جمال عبدالناصر عام ١٩٥٤ .

ولهذا فبرغم ما حققته الثورة من إنجازات واتخذته من مواقف كانت من بعض أحلام نجيب محفوظ وأحلام المثقفين الوطنيين والتقدمين عامة آنذاك ، إلا أن هذا الوضع السياسى الملتبس -

وخاصة فيما يتعلق بالطابع العسكرى للسلطة الجديدة ، والموقف من الديمقراطية السياسية ــ قد فجر أزمة بين المثقفين والثورة ، عبر عنها محمد حسنين هيكل بعد ذلك عام ١٩٦١ فى كتابه «أزمة المثقفين» .

ولم يكن توقف نجيب محفوظ عن الكتابة منذ قيام الثورة عام ١٩٥٢ حتى أواخر الخمسينيات إلا تعبيرا ـ فى تقديرى ــ عن أزمته الكتابية الإبداعية فى مجتمع هذا الوضع الجديد الملتبس المتناقض* بين شعاراته ومنجزاته السياسية والوطنية والاجتماعية المتقدمة ، وبين الشكل غير الديمقراطى فى الممارسة السياسية والاجتماعية .

فى هذا الإطار صدرت رواية «أولاد حارتنا» عام ١٩٥٩ . لعله بدأ كتابتها قبل ذلك بعامين أو بعام ونصف العام ، وبدأت جريدة الأهرام فى نشر الرواية مسلسلة يوميا ابتداء من يوم ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٩ حتى يوم ١٩٥٩/١٢/٢٥ . وكان صدورها فى لحظة من أشد لحظات تاريخ ثورة يوليو تأزما . فمئات الشيوعيين والإخوان المسلمين فى السجون ، والمعركة على أشدها بين قيادة الثورة وبين من كانوا حلفاء لها بالأمس من قوى يسارية وشيوعية عربية ، فضلا عن الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية والحركات والتنظيمات الديمقراطية والتقدمية فى العالم أجمع .

وقد أغامر بالقول بأن نجيب محفوظ قد كتب روايته «أولاد حارتنا» كرد فعل نقدى أدبى إبداعى لهذا الواقع السياسى والاجتماعى والإيديولوجى الجديد الذى أخذت تسعى ثورة يوليو إلى تحقيقه . فهذا الواقع الجديد لم يكن قد تحددت ملامحه النهائية بعد ، وإن تحددت بعض ملامحه وخاصة فى هذه العلاقة الملتبسة والمتناقضة بين الشعارات والمنجزات المتقدمة لثورة يوليو ، وبين ممارساتها اللاديمقراطية من الناحية السياسية . وكان نجيب محفوظ قد انقطع عن مواصلة الموضوع الاجتماعى الذى كان شاغله ومادته التى يستلهمها فى إبداعه الأدبى السابق والذى جاءت ثورة

يوليـو فخلخلت وغيرت من خريطتـه . ولهذا لم يكن يستطيع أن يكتب عن الـواقع الجديد ــ إذا أراد أن يكتب عنـه ــ بعناصر مستلهمـة من الـواقع القديم ، ومـا كان هـذا الـواقع الجديد قـد استقرت مـلامحه النهائية حتى يتمكن من الكتابـة عنه ، فضـلا عن ان الطابع العسكرى لسلطة الحكم الجديد وللـوضع العام ما كان يتيح لـه التعبير الواقعى إذا أراد أن يعبر عنه . على أن نجيب محفـوظ كان يـريد أن يكتب ، وأن يعبر . وكـان مأزقـا يعيش هـذا الالتباس والتنـاقض بين الشعـارات والممارسـات . ولعله كان يشير إلى نفسه على لسان الرواية فى افتتاحية «أولاد حارتنا» الذى يقول : «وما أكثر المنـاسبات التى تدعو إلى ترديد الحكايات . كلما ضـاق أحد بحاله أو ناء بظلم أو سوء معـاملة ، أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال بحسرة : «هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه ، ونحن مستحقو أوقافه ، فلماذا نجوع وكيف نضام ؟!» ثم يأخذ فى قص القصص والاستشهاد بسير أدهم و «جبل» ورفاعة و «قاسم» من أولاد حارتنا الأمجاد .

وكانت حـال نجيب محفوظ فى ظل الأوضـاع الجديدة ـ كحـال هذا الـراوى الـذى أصبح هـو نفسه بعـد ذلك ــ تـدعـوه إلى أن يحكى ، وتفرض عليه أن يحكى بـالواقع الرمزى بدلا من الرمـز الواقعى الذى كـان منهجه فى السـابق من رواياتـه . **ولم يكن هناك أفضل وأسلم وآمن من تاريخ الـرسل نموذجا جـاهزا يتخذ من إطـاره البنيوى العام ، ومن قيمه المثـالية الرفيعة مـادة ينسج بهما نقده للواقع السائد ورؤيته الفكريـة والفنية التى يتطلع إلى تحقيقها فى مصر ولمصر وربما للإنسان المعاصر حيثما كان .**

لم يكن فى الأمر إعادة كتـابة لتاريخ هذه الرسـالات الدينية ، وإنما استلهمها رمزيا لنقد الحاضر الملتبس والتبشير بعالم أفضل يمكن أن تتجدد فيـه السلطة تجددا لمصلحة النـاس جميعا ، ويـزول الالتباس والازدواج بين مـرجعيـة القيم المثـاليـة العليـا والممارسـة العمليـة ، وتتوافـر فيه إمكـانية الانتصـار النهائى للغـايات العليـا للرسـالات

الدينية بالإضافة إلى الخبرات الإنسانية المتجددة التى تتمثل فى المعرفة والعلم والتكنولوجيا .

على أن رواية «أولاد حارتنا» وإن كانت ذات رؤية إنسانية شاملة ، تتعلق بدلالتها الجوهرية بالإنسان حيثما كان ، فإنها ـ فى تقديرى كما ذكرت ـ كانت تجتهد لتقديم موقف نقدى بديل لمصر فى مواجهة الموقف الذى أخذ يسود فيها منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٩ كما سبق أن ذكرنا . ولهذا ، فالجبلاوى فى رواية «أولاد حارتنا» هذا الجد الأكبر لكل أولاد الحارة ، الذى يطل دائما على الحارة ويغمر أفقها بجسمه العملاق ووصاياه العشر منذ بداية نشأة الحارة حتى وفاته ، هذا الجبلاوى ليس من الضرورى أن يُقرأ فى الرواية باعتبار أنه الله الخالق لكل شىء ، وإن كانت بعض فقرات الرواية قد توحى بذلك ، على أنه قد يرمز إلى ما يعنيه الله فى الأديان جميعا من تجسيد معنوى لأشرف قيم الحق والعدل والمساواة والمحبة والعلم المثمر ، أى هو رمز لمرجعية مثالية تمثل فى الوصايا العشر . إلا أن الله الخالق تحديدا وارد فى الرواية فى أكثر من موضع مما يجعل للجبلاوى دلالة خاصة مختلفة وإن تكن مراوغة . فنقرأ فى الرواية مثل قول «همام» لأخيه «قدرى» :

(أنت مجنون وحق خالق الكون) ، وقول جبل : (الحمد لرب السموات على أنك تتمتع بصحتك) ، إلى غير ذلك. الجبلاوى إذن فى الرواية ليس هو الله خالق الكون ورب السموات ، وفضلا عن هذا فإن الوصايا العشر فى الرواية ليست هى الوصايا العشر أو الألواح العشر المذكورة فى النصوص الدينية ، وإنما هى إشارة متروكة فى الرواية مجهلة بغير تحديد ، وفى تقديرى أنها متروكة هكذا عن عمد لأنها وصايا تتجدد بتجدد احتياجات الحياة رغم جذورها التاريخية الثابتة . ولهذا ، فالجبلاوى فى هذه الرواية فى إيحائه الآنى الذى يحدده السياق التاريخى لكتابة الرواية ، فضلا عن القراءة الشاملة لأدب نجيب محفوظ ، هو أقرب ما يكون إلى ما تحمله ثورة يوليو من

شعارات ومبادىء وأهداف وقيم أساسية ، أى من مرجعية قيمية لسلوكها وممارستها ، كما كان الشأن فى كل ثورة حملتها الرسالات الدينية من قبل . لهذا لم تفصح الرواية عن حقيقة الوصايا العشر التى يحملها ويخفيها الجبلاوى ، وإن يكن يحاسب أبناءه بمقتضاها .

وفى مواجهة هذه القراءة الآنية للجبلاوى ووصاياه المبدئية العشر ، تجرى الممارسة السلوكية العملية المناقضة لهذه الوصايا ولهذه المرجعية القيمية عامة ، ففى مواجهة الجبلاوى ووصاياه ، كان نظار الأوقاف ، والفتوات الذين يحمونهم ويشاركونهم فى الاستئثار بريع الأوقاف وحرمان أولاد الحارة منه فضلا عن إذلالهم . إنه التناقض بين المثال والواقع المتحقق ، بين القيمة المرجع والممارسة المضادة ، بين القدرة والنموذج النقيض .

خلاصة الأمر ، أن جوهر «أولاد حارتنا» فى تقديرى هو النقد القيمى الفكرى الرمزى للسلطة الناصرية للتناقض بين شعاراتها ومبادئها وبين بعض ممارساتها وخاصة تلك المتعلقة بالديمقراطية السياسية . إلا أن الرواية فى الوقت نفسه تسعى لتقديم رؤية تبشيرية تزيل بها هذا التعارض بين المثال والواقع ، بين السلطة والمجتمع ، بين السياسى والأخلاقى ، بين النظرى والعملى ، بين الموضوعى والذاتى فى مصر بشكل عام . وبهذا تكون هذه الرواية رغم بنيتها الرمزية الملحمية ، امتدادا للهم الأكبر الدائم الذى كان يشغل فكر نجيب محفوظ وضميره وإبداعه الأدبى ، وأعنى به قضية السلطة فى مصر .

نحن إذن ما نزال نواصل فى «أولاد حارتنا» مع نجيب محفوظ ما بدأه فى رواياته الثلاث الأولى من اهتمام وهم بقضية السلطة فى مصر . بل لعلنا نجد هذه القضية مستمرة فى بعض رواياته التالية لأولاد حارتنا وإن اتخذت أشكالا مختلفة ، فقد تتخذ السلطة شكل **الأب المفتقد** كما فى رواية «الطريق» ، أو **اليقين المفتقد** كما فى رواية

«الشحاذ» أو قد نعود إلى ما يشبه «أولاد حارتنا» فى روايات أخرى لعل أبرزها وأقربها رواية «الحرافيش» .

ولنحاول الآن أن نختبر هذا الغرض بتحليل داخلى لبنية الرواية .

تتكون الرواية من خمس مراحل . على أنه برغم تنوع هذه المراحل واختلافها ، من الناحية الفلسفية والقيمية ، فإننا نستطيع أن نتبين بعض الثوابت الأساسية فيها جميعا . ولنبدأ بالثوابت المادية وصولا إلى الثوابت المعنوية والقيمية .

لعل أول هذه الثوابت هو الثابت الجغرافى . فنحن طوال هذه الرواية نتحرك فى حارة معينة معروفة من حوارى القاهرة ، نتحرك بين تضاريسها العامة والفرعية ، وتكاد الحارة فى هذه الرواية أن تكون صورة واقعية دقيقة لحوارى وأزقة ومنعطفات منطقة الجمالية .

حقا إن بعض هذه الحوارى سوف تنتقل مع حركة الرواية الفلسفية من مسماها المكانى إلى مسماها المعنوى ، فتصبح لدينا مع تطور الرواية حارة «جبل» وحارة «رفاعة» وحارة «قاسم» . إلا أن الجغرافيا المكانية تظل ثابتة . وهى جغرافيا مكانية محدودة ، ولكن الرواية تعدها فى مستهل صفحاتها الأولى : أصل مصر أم الدنيا ، وهذا ما ينقل الجغرافيا القاهرية المحدودة ، إلى الجغرافيا المصرية الأكثر اتساعا وامتدادا ثم إلى الجغرافيا الأرضية الإنسانية الشاملة . ويكاد المكان المحدد يفقد بهذا لا مجرد محدوديته ، بل يفقد مكانيته كذلك ويصبح دلالة قيمية فنية تاريخية شاملة .

وحول هذه الجغرافيا المكانية المحددة ، تشير الرواية دائما إلى ثابت جغرافى آخر هو الخلاء . ففى هذا الخلاء كان يعيش الجبلاوى وحده قبل بنائه الحارة ، ويكاد يشكل الخلاء فى الرواية أكثر من دلالة رمزية ، فهو المطلق حينا ، وهو ساحة الطرد والوحدة والحرمان من رحمة الجبلاوى حينا آخر ، أو هو ساحة الهروب من طغيان الفتوات

حينا ثـالثا ، وهو سـاحة العدوان والمعارك حينـا رابعا ، وهو سـاحة التأمل والاستلهـام حينا خامسـا ، وهكذا تتنـوع دلالة الخلاء تنـوعا معنويا وقيميا .

وإلى جانب هـذا الثابت الجغـرافى المتمثل فى الحارة والخلاء ، هناك الثـابت اللغوى الـذى يعمق الطابع الجغـرافى المحدد ، ويضفى عليـه دلالته المحليـة الخاصة ، أو يؤكد لـه باستمرار هذه الـدلالة ، ويتمثل هذا فى لغة الـرواية ، سواء فى بعض سردها ، أو فى حـواراتها . فبالرغم من أنها لغـة عربيـة رصينة قـد تـرتفع أحيانـا إلى مستوى التعـابير الأسطوريـة والشعرية ، فإنها زاخرة بـالتعابير والأهازيج الصـارخة بشعبيتهـا القـاهـريـة . وتكفـى الإشـارة لبعض نماذج منهـا مثل : «يـاداهية دقّى» و «مط بـوزه» و«العجل وقع هاتـو السكين» و «وطى البصلة» و «يمحنّى ديل العصفورة» و «نقّطنـا بسكوتك» و «ياملبّس حمدان الطُرح» و «يا عجوزيـا قارح» و «فتّك بعافية» و «يفك حصْره» و « يا خبر اسـود» إلى غير ذلك . وبهذه الجغرافيا اللغـوية بتعمق كما ذكرنا الطابع القاهرى الخالص للرواية .

وتنقلنا هذه الجغرافيـا اللغوية إلى جغرافية بلاغيـة تكاد أن تكون ثابتا من ثوابت الرواية كذلك ، وتتمثل فى سيادة التشبيهات الطبيعية . فالرواية تتحرك فى سردها الوصفى بالعديد من التشبيهات الطبيعية ، أى محـاولة تفسير بعض الحالات النفسية أو المعنوية بما يشابهها من حالات مادية أو طبيعية . وما أكثـر أمثلة هذه التعابير التى تكاد تشكل البنية البلاغية للرواية ، وتكفى الإشارة كذلك إلى بعض نماذجها مثل : «انطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الـريق من فيه عند العطس بغير ضـابط» ومثل : «إنه متهم دون ذنب جنـاه كـالقُلّة التى تسقط فـوق رأسـى لأن الـريح أطاحت بها» ومثـل «دموعك إن هى إلا عـرق الخبث الـذى يمتلىء بـه جسـدك» ومثل : «وإذا بـالغضب يختفى فجأة كأنه شعلة رُدمت بتراب كثيف» ومثل : «واكفهـر الوجهـالكبير حتى حاكى

لونه النيل فى احتدام فيضانه» ومثل : «فقاطعه الأب بصوت كضربة الفأس فى الحجر» ومثل : «كالثوب المنشى بعد نقعه فى الماء» ومثل : «وانقض الفزع على النفوس كما تنقض الحدادى على الفراخ» ومثل : «تكاثف الحقد كقطع الليل» إلى غير ذلك . وتكاد هذه التشبيهات البلاغية رغم قيمتها الجمالية الخاصة ، أن تكون امتدادا وتعميقا معنويا للواقع الجغرافى المحدد الخاص التى تصدر فيه وعنه ، وأعنى به الواقع المصرى القاهرى .

ومن هذه الثوابت الجغرافية واللغوية والبلاغية ننتقل إلى الثوابت المعنوية الأساسية فى الرواية وفى مقدمتها شخصية الجبلاوى التى يهيمن وجودها على الرواية كلها منذ بدايتها حتى نهايتها ، حتى بعد إعلان موت الجبلاوى فى الجزء الخامس الأخير . ذلك أن عرفة بطل هذا الجزء الخامس يسعى للقاء الجبلاوى ، ثم يسعى إلى إعادة الحياة إليه بعد موته . والجبلاوى - كما سبق أن ذكرنا - هو رمز لمرجعية القيم الإنسانية الأساسية التى يدور حولها الصراع طوال الرواية ، من أجل تحقيقها وترسيخها . إنها قيم العدل والمساواة والحق والكرامة التى ينبغى أن تسود بين البشر .

فالجبلاوى هو جد أولاد الحارة جميعا ، وهو مالك أرض وصاحب أوقافها ، وهو الراغب والشارط - بحسب الوصايا العشر - توزيع ريع هذه الأوقاف بالتساوى والعدل على أهل الحارة جميعا . ولهذا **فالمعركة طوال الرواية حول الجبلاوى ليست مجرد معركة معنوية قيمية أخلاقية ، بل ترتكز على أساس مادى موضوعى هو ملكية الأوقاف وضرورة توزيع ريعها على أولاد الحارة .** على أنه فى مواجهة هذه المرجعية القيمية الموضوعية الثابتة طوال الرواية والتى يدور حولها الصراع . هناك ثابتان آخران يكملان هذه المرجعية تكميلا ضديا هما : نظار الوقف الذين يسيطرون طوال الأجزاء الخمسة للرواية على ريع الأوقاف وعوائدها ، ويحتكرونه لصالحهم وحدهم ويحرمون منه مستحقيه من أولاد الحارة جميعا .

إن هؤلاء النظار هم ممثلو السلطة الحاكمة المستبدة المستغلة التى تتنـوع وتختلف أشخاصهم وأسماؤهم وأسـاليبهم طـوال الروايـة ، ولكنهم جميعـا رمـز ثابـت من رموز الـروايـة ومحور أسـاسـى من محاور الصراع فيها . على أن نظـار الأوقاف ينقسمـون طوال الـرواية إلى ثابت ثان آخر هـو امتداد لهم وأداة من أدوات سلطتهم القمعية هم الفتـوات . إنهم رمـز ثابت كـذلك على اختـلاف أسمائهم وأسـاليبهم ومواقعهم طـوال الروايـة . إنهم الجهاز القمعى العملى للسلطـة . وقد يرتبط بهذه السلطة ، وجهازها القمعى بعد ثالث يمثل القمع المعنوى ، أو بتعبير آخر : التغييب المعنوى عن المرجعيـة القيمية وهو الحشيش والمخدرات عامة . فيكاد الحشيش فى الروايـة أن يكون ثابتا كذلك من ثوابتهـا وجهازا آخر من أجهـزتها للسيطرة والقمع . إنـه يفسد أولاد الحارة ويغيبهم عن حقوقهم ، كما يغيب السلطـة نفسها عن واجباتها إزاء حقوق هؤلاء الأولاد !

والـروايـة تعبر عن الحشيش وعن جلسـاته فى مختلف مـواقفهـا ومـراحلها تعبيرا بـالغ الرقـة والعذوبـة والنعومـة ، تعميقا وتأكيـدا لـدلالتـه التغييبية مثل : «رائحـة الحشيش الغنـائيـة» ومثل «ودارت الجوزة كمـلاك فى حلم ، وغنى الماء فى القنينـة وتثاءب الانسـجـام» إلى غير ذلك .

وهكذا تقوم بنية الـرواية منذ جزئها الثانـى على وجه التحديد على ثنـائية ضـدية استبعـاديـة تتمثل من ناحيـة فى الجبلاوى وشروطـه العشرة كمرجعية أخلاقية ومعنوية وقانونية ، وموضوعية وتتمثل من نـاحيـة أخـرى فى النظـار والفتـوات والحشيش كقـوة انتهـاك لهذه المرجعية وخروج على شروطها .

على أن هذه الثنـائية الاستبعاديـة بين الجبلاوى ووصـاياه العشر من ناحيـة والنظار والفتـوات والحشيش من ناحيـة أخرى ، تتمثل فى ثنائية أخـرى هى الأصل لهذه الثنائية ، وهى ثنائية تنبع منـذ البداية

من الجبلاوى نفسه وتتمثل فى ولديه : «أدهم» وهو الرمز الفنى لآدم فى الرواية ، و «إدريس» وهو رمزها الفنى لإبليس أو الشيطان ، ومن أدهم يتسلسل نسل جبلاوىُّ الولاء وأدهمى الطبيعة لو صح التعبير ، وإن تنوعت فضائله ودعاويه ورسالاته ، ويتمثل فى « جبل » و «رفاعة» و «قاسم» ، وهى الرموز الفنية لأصحاب الرسالات الدينية الثلاث ، ويضاف إليهم «عرفة» وهو الإضافة المعرفية العلمية التكنولوجية العصرية لهذه الرموز الدينية . ومن «إبليس» يتسلسل نسل نظار الأوقاف والفتوات . على أنه بين نظار الأوقاف والفتوات ثنائية أخرى قد تصل كذلك إلى حد الإبادة والاستبعاد عندما يحاول أحد نظار الأوقاف الاستئثار بريعها دون الفتوات كما حدث فى مرحلة «عرفة» .

وهكذا يتحدد معمار الرواية تحديدا واضحا وحاسما فى هذا الصراع المستمر الذى يكاد أن يكون مطردا نمطيا بين نسل «أدهم» ونسل «إدريس» . **على أنه ليس مجرد صراع أخلاقى مطلق بين الخير والشر ، وليس مجرد صراع ميتافيزيقى بين مفاهيم وقيم مطلقة ، وإنما هو صراع عملى حول مصالح ، حول ملكية أرض ، ونظام حكم ، وفلسفة علاقات محددة بين أولاد الحارة الواحدة . ولا شك أن هذا الصراع الذى عبرت عنه الرواية تعبيرا رمزيا هو صراع تاريخى إنسانى شامل ، كان ومايزال جوهر الصراع البشرى عامة منذ نشأة المجتمع وظهور الملكية الفردية حتى اليوم** . إلا أن الرواية وإن عبرت عن هذه الدلالة الإنسانية التاريخية العامة ذات العمق الدينى ، فإنها قد عبرت عنها بأدوات ورموز وأماكن ومسميات وأساليب تعبير مصرية خالصة ، وعبرت عنها كإجابة نقدية توجيهية تبشيرية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فى مواجهة الأزمة التى كانت تمر بها الأوضاع المصرية عامة ، ونظام الحكم المصرى خاصة فى المرحلة الناصرية ، ابتداء من عام ١٩٥٢ ، ولا تتوقف الدلالة النقدية التوجيهية التبشيرية للرواية عند عام ١٩٥٩ ،

وهو العام الذى بدأ فيه نشر الرواية ، بل تمتد هذه الدلالة النقدية حتى يومنا هذا ، وستظل ممتدة ما بقى هذا الصراع وهذه الثنائية الضدية الاستبعادية بين المثال والواقع ، بين سلطة الحكم ومصالح الناس وحقوقهم .

والرواية لا تقول كلماتها فى فصلها أو جزئها الخامس الأخير ، بل لعل هذا الجزء الأخير أن يكون بلورة وتنمية وخلاصة لمجمل أجزائها الخمسة .

ففى الجزء الأول يبرز الصراع بين أدهم وإدريس بسبب اختيار الجبلاوى لأدهم مسئولا عن إدارة الوقف بما يؤهله ذلك لوراثته . **وهكذا نتبين منذ البداية أن الصراع لا يحتدم بين قيمتين معنويتين أخلاقيتين ، بل بين سلطة ومصلحة .**

على أن أدهم سرعان ما يطرد من حديقة الوقف ، ومن حياة النعيم التى كان يحياها فى هذه الحديقة بسبب وقوعه فى خديعة نسجها له أخوه إدريس . على أن المهم هو أنه فى هذه المرحلة الأولى من مسيرة التاريخ الإنسانى فى هذه الرواية ، كان أدهم يحلم بأن يظل مستمتعا طول حياته بالنعيم دون أن يقوم بعمل أو جهد اللهم إلا الغناء والاستمتاع بالسعادة ، وهو الحلم الإنسانى الأول الذى تسعى مسيرة «**الرواية ــ الإنسان**» أن تحققه بالعمل ، **أى أنه لا سبيل إلى تحقيق سعادة ونعيم اللا عمل إلا بالعمل نفسه . هذا هو بعد من أبعاد فلسفة الرواية .**

وننتقل فى الجزء الثانى من المسيرة إلى مرحلة «جبل» . ومع هذه المرحلة تبدأ مرحلة عمرانية جديدة ، فلم تعد الجغرافيا الأولى للعالم محدودة بالبيت الكبير الذى يقطنه الجبلاوى وبحديقته الغناء فى مواجهة الخلاء ، بل انتشر العمران بفضل أموال الوقف ، وتم تخطيط الحارة تخطيطا يكاد يعبر عن ثنائية الأوضاع فى الحارة . فهناك البيت الكبير ، حيث يقيم الجبلاوى الذى أغلق بابه واعتزل الدنيا . ويمتد

أمـام هذا البيت الكبير صفـان من البيـوت : صف على رأســـه ناظـر الوقف ، وصف آخر مواز له على رأسه بيت الفتوة .

وهنا تبـدأ قصة استئثار النـاظر بـريع الوقف والتقتير فى الأرزاق وحرمـان بقية أولاد الحارة من ذلك الـريع معتمدا على نبـابيت الفتوة وأتباعـه . ويكون أبناء أدهم وإدريس قـد تناسلوا . أمـا أبناء «أدهـم» فهم الفقـراء المطحـونـون المذلـون المهانـون فى الحارة ، وأمـا أبنـاء «إدريس» فهم موزعون بين عائلـة الناظر والفتوات . ويزداد فى الحارة الفقـر والبـؤس والقـذارة والمهـانـة والتسـول من نـاحيـة ، والقمع والاستغـلال من نـاحيـة أخـرى ، كما يصبح الحشيش هـو وسيلـة للإلهاء والتخدير والتغييب .

على أن أبنـاء الحارة من ســلالـة «أدهم» الـذين تمثلهم عـائلـة آل حمدان ، يقررون الذهـاب إلى الناظر للاحتجاج على سـوء الفقر وسوء الأحوال وسـوء المعاملة ، طـالبين العدالة فى تـوزيع حقهم فى الوقف . وينكر الناظر عليهم حقهم ، ويطـردهـم من حضرته ، ويسعى للاتفاق مع الفتـوة وأعـوانـه لتأديبهم . وفى بيته كـان «جبل» . تبنتـه زوجـة الناظر منـذ أن كان طفلا صغيرا فقيرا منبوذا ، ولكنـه كان من أبناء آل حمدان . ولهذا يـرفض السكـوت على مـا ينتظـر أهلـــه من عسف . ويحـسم أمره فى مواجهة النـاظر وزوجته ، ويقرر أن ينتقل إلى صف أهله ، وينفـذ هذا بـالفعل ، ويقود معـركة أبنـاء «أدهم» ضد النـاظر والفتوات ، وينتصر عليهم فى النهاية بالقوة والحيلة وحسن التدبير .

وهكـذا انتقل الحكم إليـه فى النهـايـة فكان مثـالا للعـدل والقـوة والنظـــام فى الحارة . ولكنـــه اهتـم بـــآل حمدان فحسـب ولم يهتم بـالآخريـن من أولاد الحارة من «أبناء أدهم» . ولهذا لم تكـن رسـالتـه رسالـة لكل الحارة ، أو رسـالة إنسانيـة شاملـة . بل اقتصرت على آل حمدان . وهى إشارة رمـزية إلى حـدود الرسـالة الموسـوية . على أنها

خطوة أولى فى المسيرة الإنسانية التى ستتنامى وتتسع فى الخطوات التالية .

فالحال لا يدوم ، فما أن ينقضى عهد «جبل» حتى يعود الظلم والاستغلال والامتهان إلى الحارة ، إلى أولاد الحارة جميعا . فتبرز وتقوى سلطة الناظر المستبد المستغل متسلحا بنبابيت الفتوات . يتغير اسم الناظر وتتغير أسماء الفتوات ، ولكن النظام نفسه يعود إلى ما كان عليه قبل «جبل» . وأولاد الحارة المساكين ، يحلمون بما كان يحلم به «أدهم» . فقد أصبحوا «أقفية» متورمة من الصفع ، وأدبارا ملتهبة من الركل ، وعيونا يرعاها الذباب ، ورؤوسا يعشش فيها «القمل» . وكما ظهر «جبل» من بين أبناء «أدهم» يظهر «رفاعة» ، الذى يأخذ فى التصدى للظلم والاستغلال والقمع السائد . ولكنه يسير مسيرة غير مسيرة «جبل» . وعندما يقال له : «إن جبل بالجبروت أقام العدل ، وأنه أراد بالفعل استخلاص الحق بالحسنى ، ولكنه اضطر إلى استخدام القوة دفاعا عن نفسه» كان رد «رفاعة» : «إن حارتنا فى حاجة إلى الرحمة» ويقول «رفاعة» : «إن الذى يحول بيننا وبين السعادة هو العفاريت الكامنة فى أعماقنا» ، ولهذا كان يرى أن رسالته المناهضة للظلم السائد هى طب العفاريت الكامنة فى الأعماق .

وهكذا نتبين أنه إذا كان «جبل» قد استعان بالقوة والتدبير أساسا لاستعادة الوقف ، وكان رمز ذلك فى الرواية هو اكتشاف الثعابين والقضاء عليهم ، سواء أكانت هذه الثعابين ثعابين حقيقية ، أم ثعابين تتمثل فى الناظر وفتواته ، فإن «رفاعة» ركز اهتمامه وطبه على النفوس ، «لإصلاحها وتطهيرها من الحقد والطمع والكراهية وسائر الشرور التى تفتك بأهل الحارة» ، وكانت العفاريت الكامنة فى الأعماق هى رمزها فى الرواية ، لقد أراد «رفاعة» أن يفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه . ولكن الأمر انتهى به إلى أن يصرعه الفتوات .

وينقسم أتباعه من بعده حول رسالته : هل هى الاقتصار على

عـلاج المرض علاجـا روحيا تطهيريـا واحتقار الجاه والقـوة ، أم هى التمسك بكل الحقوق فى الوقف وإعادة توزيعه بالعدل ؟

وتنتقل بنا المسيرة إلى مرحلة رابعـة . لقد تغير الزمن ولكن لا شىء تغير فى الحارة . «فالفقـر مايـزال مستشريا ، والوجـوه ماتـزال ذابلة مهزولـة ، والثياب مرقعة ، والبيـت الكبير مايزال قابعـا وراء أسواره غارقـا فى الصمت والذكريـات» وإلى اليمين يقبع بيت الناظـر الجديد ، وإلى اليسـار بيت الفتـوة الجديد أيضـا . لعل الجديـد فى الحارة هـو انقسـام الحارة إلى حى آل جبـل ، وحى آل رفـاعـة ، إلى جـانب حى الفقـراء وهـو حى الجرابيع . ومن هـذا الحى الأخير ، حى الجرابيع ، يخرج شاب يتيم اسمه قاسم ، ينتسـب من بعيد إلى جده الجبلاوى . تبناه عمـه زكريـا بياع البطاطـا وساعده فى بيع البطـاطا عنـدما كبر ، ولكنه سرعان ما تحول إلى راعى أغنام ، يرعى أغنام آل جبل وأغنام آل رفاعة . وانبثقت فى نفس قاسم رغبة فى أن يكون مثل «أدهم» و«جبل» و «رفاعـة» . وأخذت تنمو فى الحارة سمعتـه باعتبـاره أمينا وحكيما . وكان يـرى أن الحكمة أجل من الفتـوة ، ولكنه لم يكن يـرفض القوة ، على أن العبرة عنده كانت بالقوة التى تصنع الخير .

وهكـذا راح يتصـدى للناظـر والفتوات شأنه فى ذلك شـأن «جبل» و « رفاعة » . ويبعـث إليه الجبلاوى بخـادمه قنديل ـ أو هكذا تصور لـه ـ لينقل إليـه رسـالته التى يقـول لـه فيها : «أولاد الحارة جميعـا أحفـاده على السـواء . ليس هناك تفـرقـة بين حى وحى ، بين فقير أو غنى . وان الـوقف ميراثهم على قدم المسـاواة» ويقـول له فيهـا : «إن الفتونـة شر يجب أن يذهب ، وأن الحارة يجب أن تكـون امتدادا للبيت الكبير» أى أن يكـون البيت الكبير ووصـايـاه العشر هـو مرجعيتهـا فى مختلف ممارساتها .

ويبدأ قـاسم جهاده غير طـامع فى نصيب من الوقف ، وإنما يـريد الخير الذى أراده جـده الجبلاوى ، وحـددته وصـاياه العشر . على أن

قاسم يضيف إلى هذه الوصايا قوله : بأنه إذا انتصر فلن يحرم النساء من ريع الوقف سواء كانت سيدة أو خادمة . ولكن هل يستند فى تحقيق رسالته إلى القوة «كجبل» أم إلى الحب «كرفاعة»؟ ويجيب عند سؤاله : «القوة عند الضرورة والحب فى جميع الأحيان» . ويقول : سنرفع النبابيت كما رفعها «جبل» ، ولكن فى سبيل الرحمة التى نادى بها «رفاعة» ، ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم «أدهم» هذه هى مهمتنا لا الفتونة» .

وهكذا تكتمل الرسالات جميعا فى رسالة واحدة ، ويكون من الطبيعى أن يقول قاسم : «إذا نصرنى الله ، فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى» . وتحتدم المعركة وتنتصر رسالة قاسم .

وتمر السنون ، ولا يلبث النظام السابق أن يعود ، نظام النظارة المستبدة المستغلة ، والفتونة القامعة . وتنقسم الحارة إلى ثلاثة أقسام ، بين آل جبل وآل رفاعة وآل قاسم ! أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه فى الزمان الأسود ، «تنهكهم الفاقة ، وتتهددهم النبابيت ، وتنهال عليهم الصفعات . وتنتشر القذارة والذباب والقمل ، ويكثر المتسولون والمشعوذون وأصحاب العاهات» .

وتنتشر عبارة «مافى فايدة» و «أحسن ما نفعل سكرة أو تحشيشة» !

ويبرز فى هذا الإطار «عرفة» الساحر ، أى رجل العلم والتكنولوجيا ، أو رمز رجل العلم والتكنولوجيا ، ليتصدى لهذه النكسة التى عدت على الحارة عقب أيام قاسم» . ويتساءل : نحن فى حاجة إلى قوة تخلصنا من الفتوات ، قوة تفوق سلطة الناظر ونبابيت الفتوات . وبعلمه أو بسحره ينجح فى صنع زجاجات تتفجر عند إلقائها وتفتك بمن يتعرض لها ، وأخذ يستعد للمعركة الفاصلة . ولكنه أراد أولا أن يلتقى بالجبلاوى وأن يعرف شروط الوقف العشرة ، وأن يطلع على الكتاب الذى طرد بسببه «أدهم» .

واستطاع أن يتسلل إلى البيت الكبير سعيا للقاء الجبلاوى فى خلوته . ولكنه يضطر إلى قتل خادم عجوز من خدم الجبلاوى حتى لا ينكشف تسلله داخل البيت الكبير .

وعندما يخرج من البيت دون أن يتمكن من رؤية الجبلاوى يعرف أن الجبلاوى قد مات . إنه لم يقتله ، وإنما قتل خادمه العجوز على الرغم منه . هل مات الجبلاوى حزنا على مقتل خادمه العجوز ؟ هل ثورة «عرفة» على أن يتسلل إلى بيت الجبلاوى وإلى ما يقرب من خلوته ، كانت إيذانا بنهاية الجبلاوى ؟ هل اكتمال كل الرسالات برسالة قاسم ، بالإضافة إلى أن القدرة العلمية التى يمتلكها عرفة تؤذن بنهاية الجبلاوى كمرجعية قيمية ؟ فالجبلاوى ترك لعرفة وصية أبلغتها له خادمته يقول فيها «لعرفة» «مات وهو راض عنه» . على أن عرفة راح يحلم بأن يرد الحياة إلى الجبلاوى بعلمه وسحره . وينجح عرفة فى صنع عدد من الزجاجات القابلة للتفجير ، وينجح بفضلها فى التخلص من واحد من كبار الفتوات . ويكشف الناظر أن عرفة وراء ذلك ، وأنه يملك هذا السلاح الحاسم ، الذى لا تقف أمامه النبابيت . ويستدعيه الناظر ، ويبلغه أنه مثله يريد أن يتخلص من فتوات الحارة ، وأنه يريد أن يستعين بزجاجاته المتفجرة لتحقيق الهدف .

ولكن كيف يتحالف عرفة مع الناظر الذى كان هو نفسه هدفا من أهداف رسالته للقضاء على الظلم والاستبداد ؟! على أنه يضطر إلى ذلك التحالف ، فالناظر يعرف سره ، ويستطيع أن يفشيه ويترك «عرفة» لانتقام بقية الفتوات وأعوانهم .

وهكذا يتحالف العلم مع السلطة المستبدة ! معنى هذا أن السلطة المستبدة تستطيع أن تستخدم العلم لصالحها ، لتأكيد وحماية استبدادها ! فالناظر ما كان يريد التخلص من الفتوات بسبب ظلمهم

وعـدوانيتهم ، وإنما بهدف الاستئثـار بـريـع الـوقف الـذى كـانـوا يشاركون فيه .

ليس بـالعلم وحده إذن ينقشع الظلم وتسـود السعـادة وتتوافـر الحقوق لأصحابها ! ولهذا كان «عرفـة» يؤكد ضرورة إعادة الحياة إلى الجبلاوى ، أى ضرورة المرجعيـة القيمية إلى جـانب سحـره أو علمه . على أن جانبـا من هذا كـان متحققا فى حيـاة ومسلك «عرفـة» نفسه ، ويتمثل فى زواجه «بعـواطف» . «فعواطف» كـانت باسمها وبسلـوكها وجمالها رمزا للمحبة والإخلاص والعمق الـوجدانى الروحى والتفانى فى الخدمة والعمل .

كان زواجهما يعبر تعبيرا رمـزيا عن وحـدة العلم والشعـر ، وحدة التكنولوجيا والقيم الإنسـانية . على أن الناظر ينتصر عليهما ، وينجح فى استغلال علم وتكنـولوجيا «عرفة» فى التخلص مـن الفتوات ، إلا أنه فى الـوقت نفسـه نجح فى احتـواء «عـرفـة» و «عـواطف» ، بفـرض وجـودهما فى قصره ، وحرمـانهما من الخروج منه ، بحجـة حمايتهما من أولاد الحارة ، بل وفى إغـراقهما بـا لمتع والـراحـة والحشيش حتى يتملكهما تمامـا . على أنـه فى هـذا المنـاخ من الاسترخـاء والاستمتـاع والتخـدير ، تكتشف «عـواطف» أن «عرفـة» يخونها مع امرأة فى هـذا القصر . وقد تكـون هذه الخيـانة فى الروايـة مجرد رمز لخيـانة أكبر وأشمل هى خيـانة «عـرفة» لعواطـف »الرمـز» وخيانته للعلـم نفسه بتحالفـه مع الناظر رمـز الظلم والاستبداد والاستغـلال ، ولهذا تقرر «عواطف» الانفصـال عن «عرفـة» والهروب من قصر الناظـر ، وتعود إلى بيتها المتـواضع فى الحارة . ولكن عرفـة سرعان مـا يلحق بها ، بعد رفضها المتكرر له ، وتقبل معذرته وندمـه عندما يؤكد لها أنه لا عودة إلى الناظر ، وأنه يخطط للهرب معهـا خارج الحارة . ولكن الناظر كان لهما با لمرصاد . فيقبض رجاله عليهما ، ويدفنانهما حيين فى الخلاء .

على أن «عـرفة» كـان قد استطـاع أن يتخلص من كراسـه الحاوى

لأسرار سحره وعلمه ، ويسعى صديقه «حنش» للعثور على هذه الكراسة ومواصلة طريق عرفة . وقيل فى الحارة : «ان بعض الشبان قد أخذوا يختفون من الحارة ، وانهم اهتدوا إلى مكان حنش وانضموا إليه ، وانه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود» ولكن هل بالسحر أو بالعلم وحده فى أيدى حفنة من أولاد الحارة يتحقق الخلاص ؟! فى حوار بين «عرفة» و «عواطف» تقول له «عواطف» :

«فى زمن قصير حقق «قاسم» العدالة بغير سحرك!» فيرد عليها «عرفة» قائلا : «وسرعان ما ولت . أما السحر فأثره لايزول ، لا تستخفى بالسحر يا عسلية العين ، إنه لا يقل عن حبنا خطرا ، ويخلق مثله حياة جديدة ، ولكنه لا يؤتى أثره الحق ، إلا إذا كان أكثرنا سحرة!» .

معنى هذا أن القضية ليست قضية السحر فى ذاته ، وإنما أن يمتلك أكثرية الناس هذا السحر ، أو هذا العلم . ولكن هذا الانتشار للسحر أو للعلم لن يتأتى إلا «إذا تحققت العدالة ، إذا نفذت شروط الواقف ، إذا استغنى أكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر» هكذا يقول «عرفة» «لعواطف» إن العلم إذن لا يسهم فحسب فى تحقيق العدالة ، بل يسهم كذلك فى تكريسها وحمايتها من الانكماش ، ولكن اشترط أن يصبح العلم ملكا لأغلبية الناس .

وتعود الحارة فى النهاية كما كانت من قبل يسودها جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب ، ولكن الناس كانوا يتمسكون بالأمل «وكانوا كلما أضرّ بهم العسف قالوا : لابد للظلم من آخر ، ولليل من نهار ، ولنرين فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب» .

وهكذا تنتهى أولاد حارتنا بالأمل ، ومواصلة طريق البحث عن خلاص . وتكاد تتبلور كلمتها الأخيرة فى هذا اللقاء الحميم بين «عرفة» المعبر عن المواصلة العملية والإضافة العلمية لكل المجاهدات السابقة من أجل استعادة الحق وتوفير العدالة والمساواة والخير

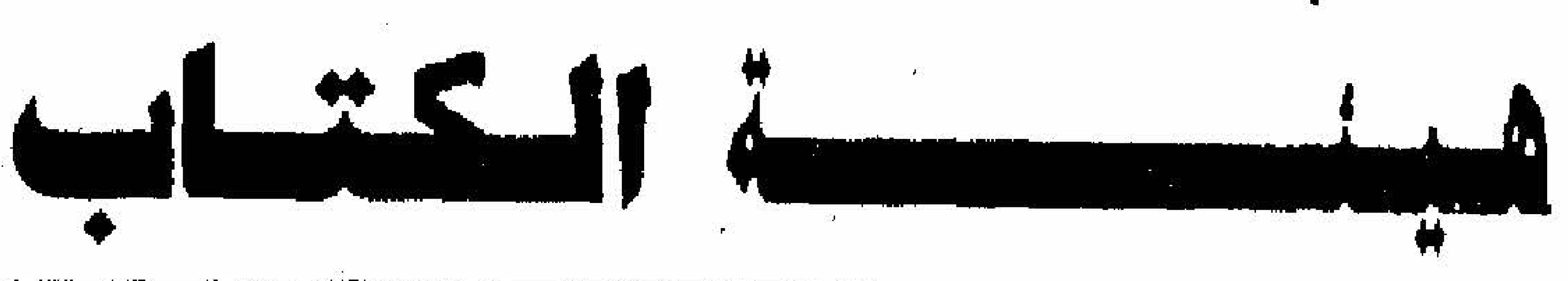
للناس جميعا ، وبين «عواطف» التى تعبر عن العمق الوجدانى والروحى لإنسانية الإنسان .

فهل نستطيع أن نتبين فى هذا اللقاء الحميم بين « عرفة » و « عواطف » ثورة أكثر تطورا وتقدما وعمقا من هذا اللقاء الذى يغلب عليه طابع التوازى والثنائية فى نهاية «الثلاثية» بين «أحمد» الشيوعى و «عبدالمنعم» الإخوانى اللذين حملتهما عربة واحدة إلى معتقل الطور ؟ !

إن «أولاد حارتنا» ـ لو صح هذا ـ هى امتداد للثلاثية فى مرحلة جديدة من تاريخ مصر ، وبأسلوب مختلف يتلاءم مع الأوضاع التى كانت سائدة عند صدورها ، والتى كانت «أولاد حارتنا» ـ كما ذكرنا من قبل ـ تعبيرا نقديا لها . على أن روايات نجيب محفوظ التى صدرت بعد «أولاد حارتنا» تكاد أن تكون امتدادا لها ، تتوزع فيها أولاد حارتنا حاملين الدلالة الإنسانية العميقة لرواية «أولاد حارتنا» بمستوى أو بآخر ، بأسلوب أو بآخر . ونستطيع أن نتبين هذا بوجه خاص فى روايات «اللص والكلاب» و «الطريق» و«السمان والخريف» و «الشحاذ» و «حكايات حارتنا» و«الحرافيش» وغيرها .

ولهذا تكاد رواية «أولاد حارتنا» أن تعبر عن النسق العام لأدب نجيب محفوظ فى مختلف تجلياته ودلالاته . إنها رد فعل فكرى نقدى أخلاقى روحى لثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولكنها تخرج عن حدودها الآنية اللحظية المحددة لتعبر عن همومنا المصرية عامة ، وتطلعنا ومجاهداتنا لتجاوز هذه الهموم ، شأن جميع روايات نجيب محفوظ ، إلا أنها فى الوقت نفسه تفيض عن حدودنا المصرية إلى حدود إنسانية شاملة دفاعا عن طريق الكرامة والسعادة والخير والمساواة والحرية والتقدم للإنسان فى كل مكان .

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب



هيئة الكتاب

بيت الثقافة لكل قارىء مصرى وعربى

ان إنتاج الكتاب يعتبر مهمة جليلة لهامراحلها التى سخرت لها هيئة الكتاب اكثر الأجهزة الثقافية امتيازا وقدرة على اختيار المفيد والجديد فى هذا المجال ولم يقتصر الأمر على اختيار الكتاب فقط بل امتد الامر إلى طباعة الكتاب حيث لدى الهيئة احدث المطابع . والفنيين الذين يقومون على إخراج وطباعة الكتاب بشكل رائع لا يقل عن مستوى الكتاب فى البلاد المتقدمة من حيث الإخراج والطباعة وبالقطع لا يقتصر الامر على اختيار الكتاب وطباعته بل لابد من ان يصل الكتاب إلى القارىء فى مصر وفى خارج مصر ومن اجل ذلك وضعت الهيئة المصرية العامة للكتاب اكبر شبكة ثقافية لتوزيع الكتاب المصرى وذلك من خلال محاور توزيع متعددة .





اولا باعة الصحف :

وضعت الهيئة نظاما للتوزيع من خلال باعة الصحف فى جميع انحاء مصر وخاصة فى المشاريع الثقافية الضخمة مثل (مكتبة الأسرة) إلى جانب مجلات الهيئة مع توزيع الكتب ذات الأثمان الشعبية .

ثانيا فروع الهيئة ومكتباتها

لقد نشرت هيئة الكتاب فى جميع محافظات مصر مكتباتها المتخصصة فى البيع ونجد هذه المكتبات على النحو التالى :

• القاهرة :

مكتبة ٢٦ يوليو ت : ٥٧٨٨٤٣١ ١٩ شارع ٢٦ يوليو

مكتبة عرابى ت : ٥٧٤٠٠٧٥ ٥ ميدان عرابى

مكتبة حديقة الفسطاط حديقة الفسطاط - صلاح سالم

مكتبة الحسين ت : ٥٩١١٢٤٤٧ الباب الأخضر - الحسين

مكتبة الفسطاط مصر القديمة

المعرض الدائم ت : ٧٧٥٠٠٠ مبنى الهيئة - كورنيش النيل

مكتبة ١٥ مايو مدينة ١٥ مايو

• محافظة الاسكندرية :

فرع الاسكندرية ت : ٢٢٠١٠٦٨ ٤٩ شارع سعد زغلول

• محافظة الجيزة :

مكتبة الجيزة ت : ٧٢١٣١١ ١ ميدان الجيزة

مكتبة رادوبيس شارع الهرم مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون ت : ٨٥٠٢٩١ - ٨٥٠٧٢٧ شارع الهرم مبنى اكاديمية الفنون

• محافظة المنيا :

مكتبة المنيا ت : ٤٤٥٤ ١٦ شارع بن خصيب

مكتبة جامعة المنيا مبنى كلية الاداب

• محافظة اسيوط :

مكتبة اسيوط ت : ٣٢٢٠٢٢ / ٠٨٨ ٦٠ شارع الجمهورية

• محافظة اسوان :

ت : ٢٩٣٠ السوق السياحى - أسوان

• محافظة بورسعيد :

مكتبة بور فؤاد بجوار مدخل الجامعة (عمارة الحزب الوطنى)

• محافظة الدقهلية :

مكتبة المنصورة ت : ٣٤٦٧١٩ ٥ شارع الثورة - المنصورة

• محافظة المنوفية :

مكتبة منوف ت : ٣٦١١٣٢٤ ٠٤٨ مبنى كلية الهندسة - منوف

• محافظة الغربية :

مكتبة المحلة الكبرى ميدان المحطة - المحلة الكبرى

مكتبة طنطا ت : ٣٣٢٥٩٤ ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

• محافظة البحيرة :

مكتبة دمنهور ت : ٣٣١٦٣٩ / ٠٤٥ شارع عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

وهناك مكتبات تحت التجديد بحيث تعود للعمل فى احسن شكل وفى اقرب وقت .

مكتبة شريف ت : ٣٩٣٩٦١٢ ٣٦ شارع شريف

مركز الكتاب الدولى ت : ٥٧٨٧٥٤٨ ٣٠ شارع ٢٦ يوليو

مكتبة الاسماعيلية ت : ٠٦٤/٣٢٤٠٧٨ منطقة الشيخ زايد الحى الثالث

ثالثا منافذ التوزيع والمعارض المحلية :

وهذه المراكز يتم إنشائها فى مناسبات ثقافية وتعتبر منافذ بيع هامة مع المعارض المحلية .

رابعا المعرض الدائم للكتاب :

وهو المخم نافذة للعرض والبيع فى القاهرة حيث يوجد فى مبنى هيئة الكتاب فى مكان يستوعب سيارات المترددين من العملاء بشكل مريح . وحيث يتم عرض كتب الهيئة مع إصدارات ومنشورات ٤٧ دار نشر مصرية ويعطى خصم فى هذا المعرض بمقدار ٢٠٪ على إصدارات ومنشورات هيئة الكتاب أما بقية دور النشر الاخرى فيتم خصم ١٠٪ على إصداراتها ومنشوراتها .

ان هيئة الكتاب تولى التوزيع اهمية خاصة حتى يصل الكتاب إلى القارىء المصرى فى مكانه .

• اما بالنسبة لتوزيع الكتاب خارج مصر فتقوم المؤسسات المصرية المعنية بالتوزيع بهذا الأمر إلى جانب الوكلاء المنتشرين فى جميع ارجاء الوطن ... مع حضور معارض الكتب فى مختلف البلاد العربية .

إصدارات هيئة الكتاب
ثقافة رفيعة بأسعار رمزية

رئيس مجلس الادارة
أ . د . سمير سرحان

رقم الإيداع ١٩٩٤ / ١١٢٣٣
I. S. B. N. 977 - 08 - 0227



طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

الثمن ٣ جنيهات